أصل الدين

بين تهافت الملاحدة واتفاق المؤمنين

السيد حسين الفياض

المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله رب العالمين من كان مؤمنا منهم ومن كان من الملحدين وصلى الله وسلم على خير خلقه محمد وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين .

يتبجح الملاحدة بدعوى أصالة الإلحاد وأن الدين صناعة بشرية ، ويروجون لفرضيات الحادية حول تفسير الدين يزعمون أنها قائمة على أسس ومناهج علمية رصينة ، هذا الكتاب هو دراسة علمية جادة لمعظم الفرضيات التي وضعها زعماء الإلحاد حول أصل الدين لتبرير إلحادهم ، يكشف وهنها وتهافتها وخواء الموقف الالحادي ، كما يثبت اتفاق المؤمنين على عقيدة أصالة الدين باقتضاء الفطرة.

نعمل الآن على تأليف كتاب بعنوان (تهافت الإلحاد) يدرس جذور ظاهرة الإلحاد واسبابها بصورة تفصيلية ، ويكشف الأقنعة التي يتستر بها الملاحدة ، ويرد أهم الشبهات التي يتمسكون بها ، ولكن احببنا أن نعجل للقراء بهذا الكتاب الذي يرد على زعم أصالة الإلحاد وكون الدين صناعة بشرية .

السيد حسين الفياض

النجف الأشرف

٢٠١٩/٦/١٠

فرضيات الملاحدة حول أصل الدين

١ـ فرضية الأرواح والأحلام

رائد هذه الفرضية هو الملحد البريطاني الأنثربولوجي إدوارد تايلور (توفي ١٩٠٩م) حيث قام بصياغة فرضيته في اصل الدين والمعروفة باسم الأرواحية ((Animism)) نسبة الى الأرواح وشرحها في كتابه (المجتمع البدائي) ، وقد وصف تايلور فرضيته بانها نظرية الحد الادنى في تعريف الدين مفترضا أن الدين في كل العالم هو نمط واحد قد تطور من الحالة البسيطة الى الحالة المعقدة .

يفترض تايلور ان اقدم شكل للدين يقوم على الايمان بوجود الارواح ، وهو يفترض أن فكرة وجود الروح قد تكونت لدى الانسان البدائي من خلال مراقبته لظاهرة الاحلام ، ففي الاحلام يرى النائم اقاربه واصدقاءه واسلافه الذين قد ماتوا منذ زمن بعيد ، كما انه ايضا يسافر سائحا من خلال النوم الى مناطق نائية وجسده راقد في سريره ، ومن هنا انبثقت في ذهن السلالة الاولى من البشر فكرة وجود الروح وثنائية الروح والجسد وأن الروح عند مفارقتها للجسد تكتسب قدرات وطاقات اضافية وهي تستطيع ان تسكن في اي موضوع من موضوعات العالم الطبيعي وأن الارواح المتحررة تبقى بشكل من الاشكال متصلة بعالم الاحياء ولها تأثير فيه ، ومن هنا جاءت فكرة الطقوس العبادية وتقديم القرابين للأرواح ، ثم تطورت الفكرة من عبادة الأرواح الكامنة في الموجودات الطبيعية أو من عبادة خصوص أرواح الأسلاف الى الاعتقاد بالآلهة الغيبية[١] . ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها التي قال بها سبنسر و فريزر فنقول :

أولا : أول من رفض هذه الفرضية هو زعيم الملاحدة دوركايم الذي يعدونه مؤسس علم الاجتماع الحديث وهو صاحب الفرضية الطوطمية التي سنذكرها لاحقا ، حيث نقد هذه الفرضية كثيرا في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية) الصادر عام (١٩١٢م) واعتبرها غير عقلانية ولا ينبغي أن تصدر من إنسان عاقل فالدين اهم واعمق وأشد رسوخا من ان ينشأ عن احلام نائم ، قال : ((لا يجدر أن يخطر بالبال أن مجموعات

---

(١) راجع : قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (تايلور ، ادوارد)
- الموسوعة البريطانية ، مادة (الأرواحية ، Animism)

من الافكار مثل الدين، والتي أدت دورا مهما للغاية على مر العصور، وعليها اعتمدت الشعوب في كل الأزمنة لأجل الحصول على القوة المطلوبة لبقائها ، لا يعقل أن تكون مجرد نسيج من الأوهام. نحن نعرف اليوم أن القضاء والأخلاق وحتى التفكير العلمي تولدت من الدين، وامتزجت به خلال فترة طويلة وبقيت متداخلة فيه. كيف يمكن لرؤيا وهمية أن تشكّل بطريقة صلدة ولفترة زمنية طويلة فكر ومعرفة البشر؟))[1] ، وهذا كلام سليم تماما ، فمن المضحك للثكلى هذا العقل الالحادي الذي يرى أن اصل الدين هو الاحلام والكوابيس ، ولكن سنرى مدى عقلانية دوركايم ووفائها بهذا الكلام عند عرضنا لفرضيته الطوطمية .

ثانيا : إن هذه الفرضية تدعي أن الحالة الأولية للدين هي عبادة ارواح الاجداد أو مطلق الارواح المزعوم وجودها في الموجودات الطبيعية ثم تطورت الى عبادة الله تعالى ، ولكن هذه الدعوى يعارضها العديد من زعماء الملاحدة مثل كارن ارمسترونج التي سنذكر فرضيتها الاسطورية لاحقا ، حيث تقول : ((فقبل البدء بعبادة آلهة عدة اقتصر الناس في أجزاء مختلفة من العالم على الاعتقاد بإله واحد قادر خلق العالم ويدير شؤون الناس عن بعد . احتوت كل المعابد القديمة على ((الله السماء)) حيث وجده الانثربولوجيين عند القبائل مثل بيجميز الاستراليين والفيوجيانز ، كان هذا الإله السبب الأول لكل الأشياء وحاكم السماء والأرض))[2] ، أي أن عبادة إله واحد هي الاصل ثم حصل التدهور متخذا اشكالا متعددة من الضلال .

ثالثا : تدعي هذه الفرضية أن السبب في عبادة الأرواح هو الاعتقاد بامتلاكها لقدرات فائقة عند انفصالها عن الجسد بالنوم أو الموت ، وقد جاء هذا الاعتقاد مما يراه النائم في احلامه من انطلاق الأرواح في آفاق واسعة وقيامها بأفعال خارقة . نقول : إن الانسان النائم كما يرى روحه في احلامه وهي تنطلق في آفاق واسعة وتقوم بأفعال خارقة كذلك يراها وهي تتردى من شاهق أو يأكلها السبع مثلا ، فلماذا رجح السيد تايلور الحالة الإيجابية للروح وجعلها موجبة لعبادة الأرواح دون الحالة السلبية المبرزة لضعف الروح ؟ إنه ترجيح بلا مرجح ، ام يريد القول أن السلالة الاولى من البشر

---

[1] - الأشكال الأولية للحياة الدينية ، إميل دوركايم ، ص٧٠

[2] - تأريخ الاسطورة ، كارن ارمسترونج ، ص٢٣

كانت احلامهم مقتصرة على رؤية الحالة الايجابية للروح ؟ لا يمكنه اثبات ذلك ولا حتى في أحلامه .

رابعا : لم يذكر تايلور ومن قال بالفرضية الأرواحية مثل فريزر وسبنسر سببا للتطور المزعوم بتحول البشر من حالة تقديس روح الاسلاف او الخوف من ارواح الموتى الى عبادة ارواح الموتى فالتقديس والخوف شيء آخر غير التأليه والعبادة ، كما لم يذكروا سببا للتحول من عبادة أرواح الأسلاف أو مطلق الارواح الكامنة في الموجودات الطبيعية الى حالة عبادة الله خالق الموتى والطبيعة ولا كيف حصل هذا التطور . لم يذكروا دليلا لأن فرضيتهم باطلة ويريدون ترقيع فجواتها بالطفرات ، إنها طفرات دينية على غرار الطفرات البايلوجية التي رقع بها دارون فرضيته الواهية في تطور الانواع الحية من بعضها البعض .

٢ـ فرضية الجهل

ابرز المنظرين لهذه الفرضية هو الملحد الفرنسي اوغست كونت[١] مؤسس الفلسفة الوضعية (توفي ١٨٥٧م) ، حيث زعم في كتابه (دروس في الفلسفة الوضعية)انه قد اكتشف قانون تطور العقل البشري فقال : ((من خلال دراسة التطور الكلي للذكاء البشري في مختلف مجالات نشاطه ، من أبسط تطوره إلى يومنا هذا ، أعتقد أنني اكتشفت قانونًا أساسيًا كبيرًا يخضع له لضرورة ثابتة. والذي يبدو لي راسخا، إما على البراهين العقلانية التي توفرها معرفة منظمتنا ، أو على التحقيقات التاريخية الناتجة عن دراسة متأنية للماضي . يتكون هذا القانون من حقيقة أن كل من مفاهيمنا الرئيسية ، كل فرع من فروعنا ، يمر عبر ثلاث حالات نظرية مختلفة: الحالة اللاهوتية أو الوهمية ؛ الحالة الميتافيزيقية أو المجردة ؛ الحالة العلمية أو الوضعية))[٢] .

وخلاصة هذا القانون انه يقسم تأريخ المعرفة الى ثلاث مراحل متتالية : المرحلة الدينية ثم المرحلة الفلسفية ثم المرحلة العلمية ، ففي طفولة العقل البشري حيث كان البشر يجهلون حقائق الطبيعة وتفسير ظواهرها فأنهم نسبوها الى موجودات خارقة ما وراء الطبيعة أو أرواح كامنة في ذات الموجودات الطبيعية ، ثم تطور العقل البشري فراح يبحث عن الاجابات بالتأملات العقلية الفلسفية المجردة ، ثم تطور واستطاع بالعلوم الحسية ان يكتشف قوانين الطبيعة واسباب الظواهر الطبيعية ، وعلى هذا فإن الدين حسب فرضية كونت هو وليد الجهل ويشكل مرحلة بدائية للمجتمع البشري قد تم تجاوزها بتطور العلوم ، وهذا القانون حسب زعمه ينطبق على الفرد كما ينطبق على تأريخ المجتمع ، فالفرد في مرحلة الطفولة لمّا كان يجهل اسباب الظواهر فأنه ينسبها الى قوى غيبية غير مادية ثم في شبابه يدرك رجوعها لقوانين المادة ، ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها فنقول :

اولا : إن هذه الفرضية تعترف بالأصالة التاريخية والروحية للدين والتدين وإن كانت ترده الى الجهل بأسباب ظواهر الطبيعة ، وهذا يثبت بطلان دعوى اصالة الالحاد .

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، اعداد جوناثان ري ، مادة (كونت) ، ص٢٦٦
ـ معجم الفلاسفة ، اعداد جورج طرابيشي ، مادة (كونت) ، ص٥٤٠

٢ ـ دروس في الفلسفة الوضعية ، اوغست كونت ، الدرس الاول ، ج١ ص١

ثانيا : هذه الفرضية تعبر عن الدين كمرحلة تاريخية متقدمة على المرحلة الفلسفية ولكن الواقع التاريخي يثبت عكس ذلك ، فمثلا بعد ازدهار المدارس الفلسفية في أوربا قبل الميلاد جاءت القرون الوسطى المسيحية التي كانت دينية بامتياز .

ثالثا : اذا كانت السلالة الاولى من البشر - حسب زعم هذه الفرضية - قد ابتكرت وجود الله كتفسير للظواهر الطبيعية فكذلك السلالة المتأخرة من البشر قد اكتشفت القانون الطبيعي لتفسير الظواهر الطبيعية ، فما الذي جعل السلالة الاولى تؤله وتعبد ابتكارها بينما السلالة المتأخرة لا تؤله وتعبد اكتشافها ؟ بعبارة أخرى : إن وجود الله مادام هو مجرد تفسير للظواهر الطبيعية بحسب منطق السلالة الاولى فلماذا يعبدونه ؟ هذا يعني أن التأليه والعبودية هي لسبب آخر غير معرفة اسباب الظواهر الطبيعية ، وأن وجود الله ليس ابتكارا لتفسير تلك الظواهر .

رابعا : هذه الفرضية تزعم ان العلم قد أحال الدين على التقاعد فلم تعد البشرية بحاجة اليه بعد تصدي العلم للإجابة عن الاسئلة الكبرى ، وهذه اكذوبة كبيرة ومبالغة في تقديس العلم وتضليل لعقول البسطاء ، فميدان العلوم الطبيعية منحصر في البحث عن كيفية حدوث الظواهر الطبيعية والعلاقات بين الموجودات كالخسوف والكسوف والزلازل وحركات الاجسام وغيرها وليس من شأنه البحث عن العلل الاولى للموجودات ، وقد اتفق جمهور علماء الطبيعة اليوم على حصر أبحاثهم ونطاق عملهم في معرفة كيفية حدوث الظواهر واسبابها القريبة وترك البحث عما وراء ذلك من العلل البعيدة ، وهذا موقف علمي رشيد يدل على التواضع العلمي و وفاء العالم لعلمه ، فما يتشدق به انصار فرضية الجهل من أن العلم قد احال الدين على التقاعد ما هو إلا تبجح من بعض من الملاحدة يكشف عن غرورهم وجهلهم بحقائق التأريخ والانسانية والعلم ، كتبجحهم بفرضية دارون وفرضية الانفجار الكبير رغم عدم ثبوتهما في الاوساط العلمية .

خامسا : هذه الفرضية تزعم ان الانسان عندما يكون عالما بقوانين الطبيعة فأنه سيكون ملحدا ، وهذا الزعم ينقضه الواقع فالكثير من علماء الطبيعة هم مؤمنون ، ونحن لا نريد أن ندخل في جدل ذكر اسماء العلماء المؤمنين بالله حيث درج سفهاء الملاحدة على انكار ايمان كل عالم ، ولكن حسبنا الارشاد الى كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) الذي هو عبارة عن مجموعة من المقالات كتبها ثلاثون من العلماء الامريكيين في

تخصصات علمية مختلفة , وفيه يثبت كل عالم منهم وجود الله من وحي تخصصه دحضا لافتراءات الملاحدة على العلماء وبرهانا أن معرفة قوانين الطبيعة لا تزيد المؤمن إلا ايمانا بعظمة الخالق .

سادسا : إن اتباع هذه الفرضية يقرون بمبدأ العِلية وأن قضية (لكل معلول علة ولكل حادث محدث ولكل أثر مؤثر) هي قضية بديهية راسخة في تخوم الوجود البشري ولا علاقة لها بالنضج العقلي ولا تطور المعارف البشرية ، ولكنهم يزعمون أن اسلافنا من البشر قد اخطأوا الاستدلال بالمعلول على العلة فنسبوا الحوادث الكونية والظواهر الطبيعية الى غير علتها الحقيقية وهي قوانين الطبيعة !! وهكذا يريد الاستاذ كونت واتباعه اخراس الالسن ولجم العقول مدعيا انه قد أتى بالذئب من ذيله وانزل الدين من علياء عرشه . لكن هيهات ، إنما أتى بفضيحة الملاحدة وأزرى بالعلم ولم يكن مستوليا إلا على اضعف السفهاء ، أما العقول الجامحة والالسن الصادحة فتظل تفكر وتسأل : ومن قنن قوانين الطبيعة ؟ يقولون : نحن اكتشفنا قوانين الطبيعة عند معرفتنا لخواص العناصر والمركبات الطبيعية . قلنا : ومن الذي جعل لكل عنصر من عناصر المادة ولكل مركب من مركبات المادة خواص كيميائية وفيزيائية خاصة به يمتاز بها عن غيره ؟ يقولون : إن ذلك يرجع الى الظروف التي تشكلت بها عناصر المادة والمركبات . قلنا : ومن الذي أوجد ورتب هذه الظروف بحيث انتجت في النهاية تلك القوانين الطبيعية الكلية الثابتة المتحكمة في الحوادث والظواهر والموجودات ؟ يقولون : لم يوجدها أحد ولم يرتبها أحد بل هي حصلت هكذا صدفة بصورة عشوائية !! قلنا : إذا كانت السلالة البشرية الاولى التي تزعمونها همجية وحشية بربرية جاهلة كانت تعتمد التفكير المنطقي المنظم عملا بمبدأ العلية وأنه لابد لكل معلول من علة بينما انتم انتكستم الى الصدفة والعشوائية فمن أولى منكم بالعلمية والتفكير السليم ؟ ما أتفه العلم حينما يتشدق به الملاحدة وما أجمله حينما يزيد العالم خشوعا ((فقد يستطيع الانسان أن يفسر ما كان غامضا عليه باكتشاف القوانين التي تحكمه ، ولكن الانسان عاجز عن أن يسن تلك القوانين ، فهي من صنع الله وحده ، ولا يفعل الانسان اكثر من أنه يكتشفها ثم يستخدمها في محاولة ادراك اسرار هذا الكون ، وكل قانون يكتشفه الانسان يزيده قربا من الله))[1] .

---

[1] - الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الامريكيين ، ص١٠٨

سابعا : إن التفكير الديني والفلسفي والعلمي ليست مراحل تاريخية للفكر البشري متمايزة زمنيا عن بعضها البعض كما تزعم هذه الفرضية ، بل هي انماط للتفكير ترافق الوجود النوعي والفردي للإنسان فلا ينفي بعضها بعضا ، ففي عصر واحد قد توجد هذه الانماط الثلاثة للتفكير متزامنة كما فيما سمي بالعصر العباسي حيث وجد علماء الدين مع الفلاسفة وعلماء الطبيعة ، وقد يشيع احد انماط التفكير في فترة ما دون ان يلغي انماط التفكير الاخرى كشياع التفكير العلمي فيما سمي بعصر الثورة الصناعية في أوربا وهو العصر الذي طرح فيه كونت فرضيته الالحادية ، علما أن سبب تعظيم العلم وشياع نمط التفكير الوضعي في القرن التاسع عشر ليس راجعا للتطور العلمي أو تطور العقل البشري بل لتوجهات اقتصادية وسياسية ولأجل الخصومة مع الكنيسة وتعاليمها ، فقد اتخذ الجشع الرأسمالي العلماني من العلم الوضعي وسيلة لتضخيم رأس المال على حساب الدين والاخلاق .

ثامنا : لا دليل عند كونت ومن يتشدق بهذه الفرضية سوى الشواهد التاريخية التي ذكرت ابتداع بعض الامم آلهة متصرفة بالطبيعية كآلهة الشمس والقمر والرياح والخصب ، ونحن نقر بضلال البشرية في بعض المراحل التاريخية ولكن ذلك لا يعود الى الجهل بقوانين الطبيعة بل الى الضلال عن الله الواحد الاحد الخالق الحقيقي لكل الوجود والمدبر الاصلي لجميع شؤون الكون ومطبع الطبيعة ومقنن قوانينها ، قال الله تعالى : ((وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (٣٧)))[1] ، فما ذكره كونت واتباعه مجرد تأويل لحالة ضلالية عارضة ينافيه الواقع التاريخي والمعاصر .

تاسعا : لا نجد العلم الوضعي في يومنا هذا قد تمكن من الاجابة الحاسمة عن الاسئلة الكبرى حول اصل الوجود ومصيره ، كما لا نجد انقطاع البشرية عن السؤال عما وراء ظاهر الطبيعة وعن معنى الحياة وهدفيتها مهما بلغ رقيها في العلم الوضعي ، وهذا يثبت اصالة هذه الاسئلة وعمقها في الوجدان البشري فهي اسئلة ترافق الوجود البشري بجميع مراحل التأريخ ولا تختص بمرحلة معينة ، كما ترافق تفكير الفرد في جميع مراحل حياته بقطع النظر عن مستواه الثقافي ونضجه العقلي ، بدليل أن اوغست

[1] - سورة فصلت

كونت نفسه لولا تفكيره في هذه المسائل لما وضع فرضيته هذه وإلا فلا نحتمل أنه استيقظ صباحا فوجد الفرضية تحت الوسادة مثلا .

عاشرا : يا عزيزي إن الحاجة للدين لا تقتصر على الحاجة الى معرفة الاجابة عن الاسئلة المعرفية الكبرى ، فهذه المعرفة هي من توابع الحاجة الفطرية للدين وهي الحاجة الى الكمال الروحي والتعلق بالكمال المطلق الذي لا يشوبه النقص ، فإن ادعى كونت واتباعه وجود صراع بين العلم والدين وأن العلم قد حل بديلا عن الدين في جانبه المعرفي وهي دعوى باطلة فإنه يستحيل أن يحل بديلا عن الدين في جانبه الروحي ، بدليل أن أوغست كونت نفسه قد ابتدع في آخر حياته دينا وجعل له ربا وطقوسا ونصب نفسه كاهنا ، فهذا برهان عبثية اوغست كونت التي سخر منها حتى الملاحدة أمثال دوركايم كما سنذكر لاحقا .

٣ـ فرضية الفقر

ابرز المنظرين لهذه الفرضية هو الملحد الالماني من أصل يهودي كارل ماركس (توفي ١٨٨٣م) مؤسس الشيوعية الديالكتيكية[١] ، وتزعم هذه الفرضية ان الدين هو وسيلة اخترعها الأقوياء والاثرياء لتخدير الفقراء وايهامهم بسعادة زائفة لمنعهم عن التمرد والمطالبة بحقوقهم ، كما ان التدين من جهة الفقراء هو وعي زائف وانعكاس لحالة الفقر حين يعجز الفقير عن تحقيق السعادة في حياته الواقعية فيوهم نفسه بتحقيقها في حياة اخرى ، يقول ماركس : ((ان التعاسة الدينية هي في شطر منها ، تعبير عن التعاسة الواقعية , وهي من جهة أخرى احتجاج على التعاسة الواقعية . الدين زفرة الإنسان المسحوق ، روح عالم لا قلب له ، كما انه روح الظروف الاجتماعية التي طرد منها الروح ، انه أفيون الشعب . إن إلغاء الدين من حيث هو سعادة وهمية للشعب , هو ما يطلبه صنع سعادته الفعلية . ان تطلب تخلي الشعب عن الوهم حول وضعه هو أن تطلب التخلي عن وضع بحاجة الى وهم . فنقد الدين هو بداية نقد وادي الدموع الذي يؤلف الدين هالته العليا))[٢] ، ويقول في البيان التأسيسي للحزب الشيوعي الذي كتبه مع شريكه فردريك انجلز : ((القوانين والاخلاق والدين هي والاحكام البرجوازية المغرضة الكثيرة سواسية بالنسبة اليه ، تتستر وراءها مصالح برجوازية كثيرة))[٣] ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها فنقول :

اولا : إن هذه الفرضية بحسب التنظير الماركسي الشيوعي قائمة على افتراض ان المجتمع البشري الاول لم يكن مشتملا على سلطة حاكمة ولا على انظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الافراد ، وأن كل خيرات الارض كانت مشاعة أي مبذولة للجميع ، وكان ناتج العمل يقسم بين جميع الافراد بالتساوي ، فكان - حسب زعمهم - مجتمعا مثاليا لا وجود للصراعات فيه أبدا حتى ظهرت فكرة الملكية الخاصة باستحواذ البعض على وسائل الانتاج كالأرض وادوات العمل ، فكانت الملكية الخاصة هي اصل جميع الصراعات والويلات والشرور التي حصلت بعد ذلك ، وبسبب وجود الملكية الخاصة وجد الانقسام الطبقي : طبقة الاثرياء وطبقة الفقراء ، وبسبب الفقر والصراع الطبقي وجد الدين والتدين ، فقبل ظهور الملكية الخاصة لا يوجد دين و لا تدين لعدم وجود

([١]) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة (ماركس) ، ص٦١٨

[٢] - نقد فلسفة الحق عند هيجل ، ص١

[٣] - بيان الحزب الشيوعي ، ماركس و إنجلز ، الفصل الاول ، ص٣٦

الفقر والصراع الطبقي وهذا يثبت اصالة الالحاد بحسب هذه الفرضية . ونحن نقول : ان هذا المجتمع البدائي الشيوعي الاول لا وجود له أصلا الا في خيال ماركس ومن سبقه من الحالمين كجان جاك روسو فهو محض افتراض لا مثبت حقيقي له ، ذلك لأن اقصى ما يثبته التأريخ المكتوب والمحفور إنما هو وجود سلالة بشرية في مرحلة أقدم كانت تمارس الصيد والرعي والزراعة بشكل جماعي ، ولكن مجرد هذا المقدار لا يثبت المدعيات الشيوعية الكبرى بأنه مجتمع لم يكن مشتملا على سلطة حاكمة ولا على انظمة وقوانين تحدد العلاقات بين الافراد ولا على ضوابط اخلاقية ولا على دين وتدين ، كما لا يثبت عدم وجود الملكية الخاصة ، ولا يثبت كونه مجتمعا مثاليا لا وجود للصراعات فيه أبدا ، فأنه الى يومنا هذا تمارس الناس الزراعة والصيد والرعي بشكل جماعي ولا ملازمة بين هذه الممارسة وبين انعدام الدين والتدين والاخلاق والانظمة والملكية الخاصة والصراعات .

لا يوجد شاهد لماركس واتباعه على وجود المجتمع الشيوعي البدائي المفترض سوى اكتشاف حياة بعض القبائل المعاصرة من السكان الاصليين لأستراليا والامريكيتين والتي زعموا وجود المشاعة الجنسية والاقتصادية فيها ، فطاروا بذلك فرحا وزعموا انهم قد عثروا على الاثبات التاريخي لشيوعيتهم المفترضة بدعوى أن هذه القبائل المعاصرة تعكس طفولة المجتمع البشري وأنها مازالت تعيش في مرحلة ما قبل التأريخ أي مرحلة ما قبل ظهور الملكية الخاصة حسب زعمهم ، ومع كوننا لا نسلم بهذه الدعوى أي دعوى ان حالة هذه القبائل المعاصرة تعكس طفولة المجتمع البشري ولا مثبت عندهم لهذه الدعوى ، ولكن مع ذلك فإن اكتشافهم هذا ينقض دعواهم في أن الدين والتدين انما ظهر بظهور المدنية والملكية الخاصة ، فهذا الملحد إنجلز زميل ماركس وشريكه في كتاباته وتنظيراته الشيوعية قد بسط الكلام في عرض حياة تلك القبائل المعاصرة في كتابه (أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة) بغية اثبات الوجود المفترض للمجتمع الشيوعي البدائي هو نفسه يقر بوجود الدين والتدين عند تلك القبائل فيقول : ((لكل قبيلة افكارها الدينية وطقوسها { وقد اصبح الهنود الامريكيون شعبا متدينا بناء على الموضة التي سادت الشعوب في عصر البربرية } . ولم يقم احد بدراسة افكارهم الدينية دراسة دقيقة الى الان ، وكل معلوماتنا عن هذه الافكار هي ايمانهم بالأرواح من كل نوع ولم تكن تماثيل الالهة أو الاصنام قد عرفت عندهم بعد إذ

كانوا لايزالون في المرحلة الدنيا للبربرية وكانوا يؤمنون بتعدد الالهة . وقد كان لكل قبيلة احتفالاتها الدينية الخاصة بها))[1] .

هذه حجة من لسانهم تثبت اصالة الدين و وجوده عند اقدم السلالات البشرية قبل أن يغرق الوادي بدموع الفقراء الذين يتباكى ماركس عليهم ، وهذا برهان وهمية الالحاد وبرهان تهافت الملاحدة ، فدعوى ان الدين والتدين وليد الفقر والملكية الخاصة والصراع الطبقي هي دعوى باطلة جزما لقيامها على افتراض خيالي ، والعجيب قيام فلسفة تاريخية معرفية اقتصادية اجتماعية سياسية على هذا الافتراض الخيالي والاعجب هو قيام امبراطورية إلحادية على هذا الخيال الماركسي هي امبراطورية الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الشيوعية .

ثانيا : ان هذه الفرضية تجعل الدين والتدين بناء فوقيا وافرازا لحالة الصراع الطبقي الراجع الى وجود الملكية الخاصة والبناء التحتي للنموذج الاقتصادي وبالتالي فعند إلغاء الملكية الخاصة وزوال ذلك النموذج الاقتصادي يزول الدين تلقائيا ، يقول الملحد الماركسي جورج بوليتزر مؤسس مركز التوثيق التابع للحزب الشيوعي الفرنسي : ((يتولد البناء الفوقي عن الاساس ويزول معه ويكون مصيره مصيره ، اذ تتولد الافكار السائدة في مجتمع معين من نموذج ملكية وسائل الانتاج التي تسيطر فيه ، ليس البناء الفوقي اذن مجرد تراكم افكار سياسية ، تشريعية ، فلسفية ، دينية ، الخ ... ذلك لأن لهذه الافكار رابطا داخليا فهي تعكس نفس الاساس))[2] ، ولكن واقع التطبيق الماركسي يكذب ذلك فقد قام الاتحاد السوفيتي السابق ومنظومة الدول الاشتراكية الماركسية بإلغاء الملكية الخاصة واقرار النظام الاشتراكي وتطبيقه ولم يزل الدين ولا التدين تلقائيا ، بل إنهم لم يتمكنوا من اجتثاث الدين والتدين حتى باستخدام اساليب القمع بغلق المساجد والكنائس ومنع الكتب الدينية والتدريس والارشاد الديني واعتقال رجال الدين وقتلهم ، ولم يتمكنوا حتى بتغيير المناهج الدراسية ودورات التثقيف الشيوعي ، لقد زالوا ولم يزل الدين والتدين وكفى بذلك برهانا على اصالة الدين والتدين وعلى تهافت الماركسية ووهمية الالحاد.

---

[1] - اصل العائلة والملكية الخاصة والدولة ، فردريك انجلز ، الفصل الثالث ، ص٩١

[2] - اصول الفلسفة الماركسية ، جورج بوليتزر ، ج٢ ص٧٥

ثالثا : إن كان الدين هو اختراع الاثرياء لاستغلال الفقراء لزم أن يكون كل الاثرياء ملاحدة جشعين وهذا اللازم باطل جزما لشهادة الواقع وجود فئة من الاغنياء الصالحين المتمسكين بالدين والمضحين بأموالهم وأنفسهم في سبيل الدين ونصرة المظلومين وانعاش الفقراء ، وإن كان التدين هو تعبير الفقراء عن بؤسهم الاقتصادي لزم أن يكون كل الفقراء متدينين وهذا اللازم باطل جزما كذلك لشهادة الواقع وجود فئة من الفقراء لا تؤمن بدين ، فدعوى أن الدين خدعة الاثرياء و زفرة الفقراء كما يدعي ماركس واتباعه هي دعوى يكذبها الواقع ، بل ان حياة ماركس نفسه تكذب قوله فهو نشأ في عائلة ثرية رأسمالية وكان متدينا ثم لما عاش حالة الفقر صار ملحدا ، وكان اللازم حسب اطروحته أن يكون العكس أي يكون ملحدا بداية حياته لأنه غني ومؤمنا اخر حياته لأنه فقير، هذا برهان تهافت الملاحدة .

رابعا : إن تأريخ الاديان الالهية يثبت أن الدين هو ثورة الانبياء والصالحين على الطغاة الفاسدين المستكبرين وعلى كل مظاهر الظلم الاجتماعي نصرة للفقراء و المظلومين . فهذا النبي موسى عليه السلام قد نشأ في قصر فرعون الذي كان يدعي الربوبية وكان جبارا يستعبد الناس ولكن النبي موسى عليه السلام كان رافضا لربوبية فرعون وعمله ورافضا لحياة القصور ومحبا ونصيرا للمظلومين ، وعندما أمره الله بقيادة الدعوة الالهية وقف في وجه فرعون مطالبا بتحقيق العدالة الاجتماعية ((وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥)))[1] ولم يرضخ للتهديدات ولا للإغراءات الفرعونية ، وعندما خرج ببني اسرائيل من مصر وأغرق الله فرعون وجنوده في البحر لم يعد النبي موسى عليه السلام الى مصر ليستولي على ملك فرعون ، ثم بعد ذلك ((وَلَمَّا جَاءَ عِيسَى بِالْبَيِّنَاتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (٦٣)))[2] ولم يأت ليبرر للطغاة الرومان والمستكبرين من بني اسرائيل ظلمهم ، فقد نشأ فقيرا وعاش فقيرا بين الفقراء في فلسطين حين كانت مستعمرة للرومان ، ولما كان المستكبرون من بني اسرائيل يأكلون أموال الناس بالباطل ويخالفون تعاليم الله أمره الله أن يجهر بالحق نصرة للمستضعفين وهداية للضالين فلقي في سبيل ذلك هو وانصاره شتى الوان العذاب ، وأراد

---

[1] - سورة الأعراف
[2] - سورة الزخرف

المستكبرون قتله فجعلهم الله الاذلين ، ثم ((لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨)))[١] وهو نبينا محمد صلى الله عليه وعلى آله الذي نشأ في مكة ورغم كونه من أسياد قبائل العرب إلا أنه عاش عيشة الفقراء رافضا لجميع مظاهر الطغيان والاستكبار والعادات الجاهلية وعبادة الاوثان ، ولما أمره الله أن يصدع بالرسالة الالهية لنشر دعوة التوحيد وتتميم مكارم الاخلاق وتحقيق العدالة الاجتماعية كان الفقراء والعبيد اسرع من استجاب لدعوته وكان المترفون اسرع من جد في تكذيبه ومحاربته ، ولما جاء نصر الله والفتح أقام دولة العدل الالهي . وهذا خليفته بالحق أمير المؤمنين علي بن ابي طالب عليه السلام وهو حاكم الدولة الاسلامية الذي عرك الدنيا ومرغ انفها بالتراب قد اكتفى من دنياه بطمريه ومن طعمه بقرصيه ، وكانت حياته عبارة عن ثورة مستمرة على الطغيان والترف والفساد والاستكبار قبل السلطة وبعد السلطة ، وهو الذي يقسم فيقول : ((فوالله ما كنزت من دنياكم تبرا ، ولا أدخرت من غنائمها وفرا ، ولا أعددت لبالي ثوبي طمرا ... ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفى هذا العسل ولباب هذا القمح ونسائج هذا القز ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخير الاطعمة ولعل بالحجاز أو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبيت مبطانا وحولي بطون غرثى وأكباد حرى ؟))[٢] فرحمك الله يا أبا الحسن صدقت وأوفيت بما عاهدت الله عليه وفزت ورب الكعبة .

وهذا الامام جعفر الصادق عليه السلام يشدد المنع على شيعته من الدخول في اعمال سلاطين الجور واعانتهم في ظلمهم ولا بمقدار مدة قلم ، فعن ابن أبي يعفور قال : ((كنت عند أبي عبدالله (عليه السلام) اذ دخل عليه رجل من أصحابنا فقال له : جعلت فداك إنه ربما أصاب الرجل منا الضيق أو الشدة فيدعى إلى البناء يبنيه ، أو النهر يكريه ، أو المسناة يصلحها ، فما تقول في ذلك ؟ فقال أبو عبدالله (عليه السلام) : ما أحب أني عقدت لهم عقدة ، أو وكيت لهم وكاء ، وإن لي ما بين لابتيها ، لا ولا مدة بقلم ، إن أعوان الظلمة يوم القيامة في سرادق من نار حتى يحكم الله بين العباد))[٣] .

---

[١] - سورة التوبة

[٢] - نهج البلاغة ، جمع السيد الشريف الرضي ، شرح الشيخ محمد عبده ، ج٣ ص٧١

[٣] - وسائل الشيعة ، الحر العاملي ، ج١٧ ص١٧٩ ، باب تحريم معونة الظالمين ، الحديث رقم ٦

وهذا الامام موسى الكاظم عليه السلام يعاتب صاحبه المخلص عتابا مرا وينذره انذارا شديدا لأنه قام بتأجير جماله في خدمة سلطان بني العباس الجائر هارون السفيه ، فعن صفوان بن مهران الجمال قال : ((دخلت على أبي الحسن الاول (عليه السلام) فقال لي : يا صفوان ، كل شيء منك حسن جميل ما خلا شيئا واحدا ، قلت : جعلت فداك أي شيء ؟ قال : إكراؤك جمالك من هذا الرجل - يعني هارون - قلت : والله ما أكريته أشرا ولا بطرا ولا للصيد ولا للهو ، ولكني أكريته لهذا الطريق - يعني طريق مكة - ، ولا أتولاه بنفسي ، ولكني ابعث معه غلماني . فقال لي : يا صفوان أيقع كراؤك عليهم ؟ قلت : نعم جعلت فداك ، قال : فقال لي : أتحب بقاءهم حتى يخرج كراؤك ؟ قلت : نعم ، قال : من أحب بقاءهم فهو منهم ، ومن كان منهم كان ورد النار . قال صفوان : فذهبت فبعت جمالي عن آخرها))[1] .

فأين أفيون الشعوب ايها الماركسيون ؟ إنه في أدمغتكم التي اسكرها خمر الالحاد والرذيلة ، إنه في اطروحاتكم الزائفة التي خدعتم بها بعض السفهاء ، إنه في بعض الأديان الزائفة ورجال الدين المزيفين من وعاظ السلاطين فاعرفوا الحق تعرفوا أهله .

[1] - المصدر السابق ، ج١٧ ص١٨٢ ، باب تحريم معونة الظالمين ، الحديث رقم١٧

٤ـ فرضية الخوف

أبرز من تشبث بهذه الفرضية ليخدع بها نفسه والآخرين هو الملحد البريطاني برتراند رسل (توفي ١٩٧٠ م) ، قال في كتابه (لماذا لست مسيحيا ؟) : ((يقوم الدين برأيي بصورة اساسية وأولية على الخوف ، إنه جزئيا الخوف من المجهول ، وجزئيا الرغبة في أن تشعر بأن لديك أخا اكبر سيقف الى جانبك في كل ما تواجهه من مشاكل ونزاعات . إن الخوف هو أساس الأمر كله ، الخوف من كل ما هو الغامض ، الخوف من الهزيمة ، الخوف من الموت ... فالعلم يستطيع أن يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى منه الجنس البشري لأجيال عديدة . إن العلم يستطيع أن يعلمنا ، وأحسب أن قلوبنا ايضا تستطيع أن تتعلم أن لا تجري وراء مدافِع خيالي ، وألا نصنع لأنفسنا حلفاء في السماء ، بل نبذل قصارى جهودنا على الارض لكي نجعل منها مكانا مناسبا لحياتنا بدلا من ذلك المكان الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلها على صنعه))[١] .

وخلاصة تقرير هذه الفرضية انها تدعي أن الانسان في السلالة الاولى وجد نفسه ضعيفا محاطا بالأخطار المهددة لحياته من كل جهة ، مهدد من الطبيعة بسبب وقوع الكوارث الطبيعية كالزلازل والصواعق والاعاصير والبراكين والطوفان ، ومهدد من الحيوانات المفترسة التي تفوقه في اسلحتها الذاتية ، ومهدد من اخيه الانسان الذي يعتدي عليه ، ومهدد من نفسه ونوازعه الشريرة مع ادراكه لمصيره الحتمي بالموت . كل هذا جعله يعتقد بوجود ارواح في الطبيعة ذات وعي وارادة وقوة وان ما يقع من الكوارث الطبيعية والظواهر المخيفة انما هو بسبب غضب الطبيعة ، فراح يقدم الهدايا والقرابين ويقيم طقوس الخضوع لأجل ارضائها ، ومن ناحية ثانية يطلب منها العون على مواجهة اعدائه من الحيوان والانسان ، ومن ناحية ثالثة يضمن السعادة بعد الموت فلا يخاف من المصير المجهول . ونحن نرد هذه الفرضية ومشتقاتها فنقول :

أولا : تشترك فرضية الخوف مع فرضية الجهل التي ذكرناها سابقا في ارجاع الاعتقاد بوجود روح في الطبيعة او آلهة مستقلة ما وراء الطبيعة الى الجهل بقوانين الطبيعة ، ولكن الفرق بينهما أن فرضية الجهل ركزت على العامل العقلي وهو الاستناد الى مبدأ العلية ، أما فرضية الخوف فركزت على العامل النفسي وهو الخوف من

---

[١] ـ لماذا لست مسيحيا ؟ ، برتراند رسل ، ص٣٤

جبروت الطبيعة ، فالإنسان حسب زعم فرضية الجهل لم يكن خائفا وانما اخطأ في الاستدلال بالمعلول على العلة الحقيقية وهي قوانين الطبيعة ، وهو حسب زعم فرضية الخوف جعله الخوف يتوهم وجود قوة حية مدركة واعية متحكمة بالطبيعة ، ولذلك فإن الردود التي دحضنا بها فرضية الجهل تدحض فرضية الخوف ولا حاجة للتكرار .

ثانيا : يقول رسل ((فالعلم يستطيع أن يساعدنا في تجاوز هذا الخوف الذي يصيبنا بالجبن والذي عانى من الجنس البشري لأجيال عديدة)) فلازم كلامه أن الانسان كلما ازداد علما بالطبيعة وقوانينها زال منه الخوف عند وقوع الكوارث الطبيعية والظواهر الطبيعية المخوفة ، وهذا اللازم يشهد الواقع ببطلانه فنحن نرى معظم البشر تنتابهم حالة الهلع والخوف عند وقوع الزلازل - مثلا - بقطع النظر عن مستواهم العلمي ولا تمنع معرفتهم بأسباب الزلزال من الخوف عند وقوعه .

ثالثا : لازم كلام رسل انه كلما تطور الانسان بالعلم كلما زال خوفه من الموت ، وهذا اللازم باطل جزما بشهادة الواقع ايضا ، فحتى الملاحدة والعلماء يخشون الموت ولا يختص الخوف من الموت بالمؤمنين والجهلاء .

رابعا : لازم كلام رسل انه كلما تطور الانسان بالعلم كلما زال خوفه من عدوان اخيه الانسان ، وهذا اللازم باطل جزما ايضا ، فلم يستطع التطور العلمي في يوم من الايام أن يحقق السلام وأن يجلب الشعور بالأمان وأن يكبح النوازع الشريرة لدى الفرد والشعوب والدول ، وخير دليل على ذلك هو الدول الغربية فهي في سباق للتطور العلمي والمعرفي في جامعاتها الدراسية ومختبراتها العلمية ولم يمنعها ذلك من استعمار الشعوب وتدميرها ، بل لم يمنحها ذلك الأمن والسلام فيما بينها حيث دخلت في صراع مع بعضها في حربين عالميتين .

العجيب ان برتراند رسل هو من بريطانيا اكثر الشعوب تطورا من الناحية العلمية وقد عاصر مرحلتها الاستعمارية التي تقطر لها جبين البربرية خجلا ، كما عاصر الحربين العالميتين ، والأعجب ما قيل عنه انه من علماء الرياضيات ، فأي منطق بائس هذا جعله يجزم أن سبب نشوء الدين هو الخوف من الطبيعة ومن الموت ومن عدوان البشر ، وأنه بمعرفة قوانين الطبيعة وتطور العلم والمعرفة سيزول الخوف من الطبيعة ومن الموت ومن عدوان البشر ، وستزول النوازع الشريرة وستحل مكانها مشاعر المحبة والتسامح والأمان والسلام بلا حاجة للدين ولا التفكر فيما بعد الموت ، ولا

لتعاليم الكنيسة كما يقول في النص السابق ((نبذل قصارى جهودنا على الارض لكي نجعل منها مكانا مناسبا لحياتنا بدلا من ذلك المكان الذي عملت الكنائس طوال تلك القرون كلها على صنعه)) !! ليس هذا المنطق الرياضي ولا منطق من خبر التأريخ والواقع والنفس البشرية ، إنه منطق الالحاد الذي لا منشأ علمي له ولا علاقة له بالعلم والمعرفة لا من قريب ولا من بعيد ، كل همه أن يخدع نفسه ويبرر لها الحادها بتأطيره بإطار علمي وهمي ، كالطبيب مدمن الخمر يأتي ليبرهن للناس منافعها ، إنه منطق العالم الخائن لعلمه - إن كان عالما حقا - وبرهان تهافت الملاحدة ونقضهم لمبادئهم ، فها هو التطور العلمي والمعرفي قد بلغ القمة اليوم وبرهن أن لا زوال للخوف ولا اطمئنان للقلوب ولا رادع للنوازع الشريرة ولا مهذب للأخلاق ولا ضابط لسلوك الفرد والمجتمع بدون الدين الحق ((ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧) وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ (٨) ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩)))[1] .

خامسا : إن الخوف حالة طبيعية عند الانسان تنشأ من حبه لذاته وإدراكه لحجمه الحقيقي في الوجود ، فالإنسان مفطور على حبه لذاته لأجل المحافظة عليها فلا يبذلها في غير ما يريده الله من خلقه كما قال تعالى : ((إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١١)))[2] وهو مخلوق من ضعف كما يؤكد الله تعالى : ((اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ (٥٤)))[3] ولا حول له ولا قوة فعلية إلا بمدد ممن له القوة الفعلية المطلقة ، ولكن الانسان قد يغفل عن هذه الحقيقة التكوينية التي يؤكدها القرآن فيستكبر أو يستقوي بما هو في ذاته ضعيف ولا ينتبه من غفلته إلا إذا انقطعت عنه كل اسباب القوة الوهمية كما في الشاهد الذي يذكره الله تعالى : ((هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ

---

[1] - سورة الحج
[2] - سورة التوبة
[3] - سورة الروم

وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢)))[١] ، وربما عاد الانسان الى غفلته و خداع نفسه فلا يذعن حتى يرى العذاب ولات حين مندم ((وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ (١٦٥) إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (١٦٦)))[٢] .

فالخوف ليس هو منشأ الدين والتدين وإنما هو كاشف عن واقع الانسان وافتقاره الى الله ذي القوة المتين وتعلقه الفطري به .

[١] - سورة يونس
[٢] - سورة البقرة

٥ـ فرضية الأسطورة وعاطفة التقديس

تمسك الكثير من الملاحدة بفرضية الاسطورة ليبرر إلحاده ، ولكن أول من ربط بين الأسطورة وبين عاطفة التقديس للطبيعة كفرضية لتفسير الدين هو الملحد الالماني ماكس مولر (توفي ١٩٠٠م) والمعدود عند الغرب بأنه مؤسس علم الاديان المقارن ((حيث يرجع مولر نشأة الدين الى افعال قوية مارستها الطبيعة على الانسان فأثارته ، ويرى أن هناك مرحلتين في نشأة الدين ، الاولى تكمن في التأمل والعجب والدهشة التي دفعت الانسان الى التفكير في انه محاط بقوى مستقلة عن ارادته ، والمرحلة الثانية هي التعبير عن هذا التفكير عن طريق اللغة ، وقد عبر الانسان عن هذه الطبيعة وقواها في استخدامات لغوية كثيرة انفصلت عن التعبير المباشر بواسطة المجازات ثم اصبحت هذه المجازات قائمة بذاتها فتحولت الى آلهة ، لا سيما مع تطور اللغة وابتعادها عن مرحلة تكوين تلك المجازات لغويا ، وهكذا فرضت اللغة على الطبيعة عالما خياليا من الكائنات الروحية التي اصبحت محركة للطبيعة وجوهر المعتقد الديني))[١] . ومن الذين تابعوا ماكس مولر في ذلك واستفاضوا في شرح فرضيته كارن ارمسترونج الملحدة اللادينية البريطانية المعاصرة ، التي كانت راهبة كاثوليكية فألحدت نتيجة عدم قناعتها بتعاليم الكنيسة ، ففي كتابها (تأريخ الاسطورة) قالت : ((كانت بعض الاساطير الاولى التي ربما يعود تأريخها الى الفترة الباليالثية ذات علاقة بالسماء ، حيث أوحت للناس التصور الاول عن الألوهة ، فعندما حدق الناس في السماء اللانهائية والبعيدة والموجودة بشكل منفصل عن حياتهم الهزيلة تولدت لديهم تجربة دينية ... قد ملأ تأملُ السماء الناس بالرعب والابتهاج ، بالدهشة والخوف . فالسماء اجتذبتهم ونفرتهم ، إنها بطبيعتها الذاتية إلهية ... في تلك الاوقات المبكرة اختبرنا العالم المحيط بنا كشيء غامض بعمق ، ليضعنا في حالة من الرعب والدهشة اللذين هما جوهر العبادة ... استمرت السماء رمزا للقداسة لفترة طويلة بعد نهاية الفترة الباليالثية ... في لحظة ما ولا نعرف متى ، بدأ الناس في أجزاء مترامية الاطراف من العالم في شخصنة السماء ، وبدأوا يخبرون قصصا عن ((الله السماء)) أو ((الله الرفيع)) الذي خلق السماء والارض بيد واحدة من لا شيء))[٢] ، وفي كتابها (الله والانسان) قالت : ((عندما بدأ الناس بابتكار اساطيرهم وعبادة آلهتهم فإنهم لم يكونوا يسعون الى ايجاد

---

[١] ـ علم الأديان ، خزعل الماجدي ، ص٤٤

[٢] ـ تأريخ الاسطورة ، ص٢١-٢٣

تفسير حقيقي للظواهر الطبيعية . فكانت القصص الرمزية ولوحات الكهوف والنقوش محاولة للتعبير عن إعجابهم))[1] .

خلاصة تقرير هذه الفرضية حسب تصوير كارن ارمسترونج أن السلالة الاولى من البشر لما بدأوا بالتأمل في السماء ملأهم الشعور برهبة الجمال تعظيما وتقديسا لها ، ثم لم يكتفوا بمجرد الاحساس بالقداسة بموضوع غير متشخص بل قاموا بتشخيص السماء في شخصيات مجازية في قصص ترمز الى اعجابهم بالطبيعة ، ثم بتكثر التجمعات البشرية تكثرت أساطير الآلهة المجازية ، وبتطور السلالات البشرية وتطور الحياة وتغير طموحات البشر ورغباتهم وإساءة فهم الرموز والمجازات الاسطورية ظهرت الاديان . فأصل الأديان حسب ما تراه كارن ليس الجهل او الخوف او الفقر او صناعة ملوك او كهنة وإنما هي متطورة عن الاساطير التي هي تعبير رمزي عن عاطفة القداسة تجاه عظمة الكون . و نحن نرفض هذه الفرضية بجميع مشتقاتها فنقول :

أولا : نتمكن أن نقول ان فرضية الاسطورة هي أقدم فرضية تم طرحها للطعن في دين الاسلام ، فقد ادعى اكابر المشركين في مكة أن كتاب القرآن بما يشتمل عليه من المعارف واخبار الأمم ما هو إلا اساطير الاولين ، وقد كان القرآن أمينا في نقل نص دعواهم في تسعة موارد ، منها قوله تعالى : ((وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)))[2] وقوله تعالى : ((إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا (٥)))[3] وقوله تعالى : ((وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١)))[4] ، فلو كان ما جاء به النبي محمد صلى الله عليه وآله عبارة عن اساطير الاولين كما زعموا لما نص القرآن على دعواهم في تسعة موارد ولكان الاحرى به كتمان هذا الأمر والتعتيم عليه بدل أن يردده تسع مرات ويفضح نفسه ، فذكر القرآن الكريم لهذه الفرضية وترديده لها في تسعة موارد في قرآن يتلى الى يوم الدين هو اعظم دليل على بطلان هذه الفرضية .

---

[1] - الله والانسان ، كارن ارمسترونج ، ص١٩
[2] - سورة الأنعام
[3] - سورة الفرقان
[4] - سورة الأنفال

ثانيا : ان اكابر المشركين في مكة لما تمسكوا بفرضية اسطورية القرآن قالوا أنهم لو شاءوا لقالوا مثل هذا ، ولكن القرآن تحداهم أن يقولوا مثله فقال تعالى : ((أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (١٣) فَإِلَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ (١٤)))[1] ولكنهم لم يقولوا رغم تكرار القرآن للتحدي أكثر من مرة بل استسهلوا الحرب على القول ، ومن هنا يظهر أن السبب في ترديد القرآن لدعواهم اسطورية القرآن تسع مرات هو لإثبات عجزهم وكشف خزيهم وفضح كذبهم ، والتحدي نفسه قائم أمام الملاحدة الجدد الذين لم يأتوا بجديد سوى محاولة احياء هذه الفرضية البالية والباسها ثوبا جديدا .

وهنا تتجلى ألوهية القرآن وخلود الرسالة الاسلامية بإثبات الدعوى والتحدي في القرآن الى يوم الدين حتى نعلم أنما أنزل بعلم الله وأن الله موهن كيد الكافرين .

ثالثا : ما برح اكابر المشركين في مكة يرددون دعواهم ويثقفون الناس على فرضية اسطورية القرآن ليمنعوهم عن التصديق والايمان بدين الاسلام ولكن مع ذلك فقد آمن الكثير من الناس خلال مرحلة ما قبل هجرة الرسول الاكرم الى مدينة يثرب والتي دامت ١٣ عاما ، وقد عانوا في هذه المرحلة شتى انواع الاضطهاد والتعذيب حتى أمر الرسول الاكرم بعضهم بالهجرة الى الحبشة وأمر البعض الاخر بالهجرة الى يثرب . فلا معنى لإيمان الناس بالإسلام في تلك المرحلة الصعبة مع تثقيف المشركين لهم على فرضية اسطورية القرآن سوى اعتقادهم بألوهية القرآن وحقانية مبادئ الاسلام وسخافة فرضية الاسطورية .

رابعا : إن المشركين أنفسهم في جزيرة العرب كان عندهم دين يعتقدون بحقانيته ومع ذلك فقد وصفوا ما جاء به الرسول الاكرم بأنه اساطير الاولين ، هذا يعني أنهم يفرقون بين العقائد والتعاليم الدينية وبين القصص الاسطورية ، فلو كانت الاديان هي عبارة عن قصص اسطورية رمزية للتعبير عن الشعور بالمقدس كما تزعم كارن ارمسترونج لما فرق المشركون بين معارفهم فوصفوها بالدين وبين معارف الاسلام فوصفوها بالأساطير . إن خبراء المشركين يميزون بين مفهوم الدين ومفهوم الاسطورة ولا

[1] - سورة هود

يقرون فرضية اسطورية الاديان وهم يعلمون أن ما جاء به الرسول الاكرم ليس اساطير ولكنهم وصفوه بذلك بقصد التوهين تعصبا واستكبارا .

خامسا : لا ننفي وجود أديان اسطورية وضعية زائفة في الاصل وظهور أدعياء الاتصال بالله ، كما لا ننفي تعرض دين التوحيد الإلهي الى عمليات تحريف وسطو ودخول الاساطير فيه منذ فجر التأريخ البشري الى يومنا هذا ، ولأجل ذلك واتر الله سبحانه وتعالى بعث الانبياء والمرسلين الى خلقه لتصحيح الانحراف وهداية الناس وإقامة دعائم الدين الحق واثبات المبادئ التي يميز فيها بين الاصيل والدخيل . قال الله تعالى : ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٢١٣)))[1] وقال تعالى : ((وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (١٨) وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (١٩)))[2] وقال تعالى : ((وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ))[3] وقال تعالى : ((وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢) فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣)))[4] وقال تعالى : ((قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)))[5] وقال تعالى : ((يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا (١٣٦)))[6] .

---

[1] - سورة البقرة
[2] - سورة يونس
[3] - سورة الأنعام
[4] - سورة المؤمنون
[5] - سورة آل عمران
[6] - سورة النساء

فالدين الواقعي واحد ، هو دين التوحيد الاسلامي وهو دين كافة الانبياء والمرسلين الذين بعثهم الله تعالى وخاتمهم هو نبينا محمد صلى الله عليه و آله وسلم ، فيجب التفريق بين الاسطوري والواقعي وبين الاصيل والدخيل .

سادسا : تقول كارن في النص السابق ((في لحظة ما ولا نعرف متى ، بدأ الناس في أجزاء مترامية الاطراف من العالم في شخصنة السماء ، وبدأوا يخبرون قصصا عن ((الله السماء)) أو ((الله الرفيع)) الذي خلق السماء والارض بيد واحدة من لا شيء)) ولكنها لم تخبرنا عن السبب المفاجئ الذي دعا الناس الى تشخيص السماء وابتكار إله السماء ، كما لم تخبرنا عن سبب نقل الناس عاطفة القداسة من السماء الى إله السماء ، ولم تخبرنا عن سبب انتقال عاطفة تقديس إله السماء الى عبادة إله السماء فإن تقديس الشيء لا يقتضي عبادته ، فنحن نقدس الأنبياء والاوصياء ولكن لا نعبدهم . لم تخبرنا كارن عن اسباب هذه الانتقالات وكيف حصولها لأن فرضيتها باطلة وهي تريد ترقيعها بالطفرات . ولهذا فقد انكر الكثير من الملاحدة فكرة رجوع ظهور إله السماء الى تشخيص السماء وعدوها وهما ساذجا لأنه لا أثر لها في الاساطير ولا تستند الى فرض منطقي كما سنذكر .

سابعا : ما لا تريد كارن واتباع هذه الفرضية الإقرار به لأسباب نفسية هو أن البشر حينما يتفكرون في عظمة السماوات والارض فأن مبدأ السببية الفطري يقودهم الى الإذعان بوجود الله فاطر السماوات والارض .

ثامنا : إن أكابر زعماء الملاحدة رفضوا جعل اساطير الشعوب منشأ للدين أو محورا لدراسة الأديان ، ومنهم فريز زعيم الملاحدة الاسكتلندي (توفي ١٩٤١م) والمعدود عندهم رائد علم الاساطير (الميثولوجيا) ، ففي كتابه (الغصن الذهبي) الصادر عام (١٨٩٠م) والمختص بسرد اساطير الشعوب تنصل من تهمة اعتبار الاساطير منشأ للدين واعتبرها تفسيرات مغلوطة عن حياة الأنسان والكون ، فقال في مقدمة الكتاب : ((أتمنى بعد هذا التنصل الصريح ألا اجازى بدفع غرامة اعتناقي لنظام ميثولوجي أنظر اليه على أنه خاطئ وعبثي ومناف للعقل))[1] وهذا برهان تهافت الملاحدة .

[1] - الغصن الذهبي ، جيمس فريزر ، ص١٣

تاسعا : إن كارن ارمسترونج تقود اليوم مشروعا الحاديا عالميا بالكتابة والمؤتمرات يهدف الى جمع كافة البشر في دين اللا دين ، فهي تدعي أن جوهر الاديان كلها هو تقديس الإله المطلق غير المتشخص بأي صفة بل هو روح الطبيعة ، وأن كل ماعدا ذلك من توصيفات الله والعقائد والشرائع التي تتمايز بها الاديان إنما هي من صناعة البشر بسبب اختلاف تعبيراتهم الخيالية عن عاطفة القداسة ، أو ناشئة من سوء فهم اللغة الاسطورية المجازية لأساطير الأولين .

إن السيدة كارن بمشروعها هذا تفرغ الاديان التي يتبعها المليارات من البشر من الواقعية الفكرية واللغوية وتحيلها الى نحو من الهلوسة الفكرية والهذيان اللغوي ، هذا هو تفسيرها وتفسير جماعة الليبرالية الدينية للوحي والنبوة والكتب المقدسة . الأنبياء بحسب زعمها أناس صالحون قد تملكتهم عاطفة التقديس لروح الطبيعة ولكن خانهم ادراكهم لروح الطبيعة كما خانتهم اللغة في التعبير وربما هم تعمدوا التعمية لسبب لا تعرفه ، كما خانهم ادراكهم لأساطير الاولين البابلية والاغريقية والهندية المعبرة عن عاطفة التقديس لروح الطبيعة والتي لا نعرف سبب اغراقها بالآلهة الخيالية التي تتزاوج وتتوالد وتتصارع ويقتل بعضها بعضا مع دعوى أنها تعبير عن عاطفة التقديس تجاه روح الطبيعة ، فألف الانبياء الكتب على هذه الحالة وقدموها للمليارات من البشر التي أساءت بدورها فهم المقاصد غير المقصودة واللغة غير الأمينة ، حتى جاءت هي وزعماء الالحاد الليبرالي النافرون من تعاليم الكنيسة فأدركوا مالم يدركه الانبياء ومليارات المؤمنين بالله ورسله وكتبه !! ونحن نقول : إذا لم يكن كلام كارن واساتذتها عبارة عن هلوسة وهذيان فلا توصيف آخر له ، إن فرضيتها باطلة من الاساس كما أوضحنا وقد وضعتها لتبرير هذه الهلوسة والهذيان الالحادي .

٦ـ فرضية الطوطمية والمجتمع

صاحب هذه الفرضية هو إميل دوركايم[١] الملحد الفرنسي من اصل يهودي (توفي ١٩١٧م) ، وهو معدود عند الغرب رائد علم الاجتماع وعلم الأنسنة وعلم الاديان . وقد بسط الكلام في شرح فرضيته في كتابه (الأشكال الأولية للحياة الدينية) في ضوء دراسته لقبائل سكان اواسط استراليا الاصليين الذين تم العثور عليهم عند اكتشاف استراليا ، حيث يزعم دوركايم أن هذه القبائل ما تزال محافظة على خصائص المجتمع البشري الأول مما تمكن دراستها من معرفة الشكل الأول للحياة الدينية ومعرفة اسباب الظاهرة الدينية فيقول : ((لا يمكننا أن نتوصل إلى فهم لأحدث الأديان إلا باتباع الطريقة التي تم بها تأليفها تدريجياً في التاريخ ... في كل مرة نتعهد فيها بشرح شيء بشري ، مأخوذ في لحظة معينة من التاريخ - سواء كان ذلك اعتقادًا دينيًا أو مبدأ أخلاقيا أو مبدأ قانونيا ، أسلوبًا صناعيًا أو نظامًا اقتصاديًا - من الضروري البدء بالعودة إلى شكله الأكثر بدائية وبساطة ، لمحاولة معالجة الخصائص التي كانت تميزه في ذلك الوقت من وجوده، ثم توضيح كيف تطور وأصبح أكثر فأكثر تعقيدا، وكيف أصبح ما هو عليه في الوقت الراهن))[٢] .

وخلاصة مزاعم دوركايم هي أنه وجد سكان تلك القبائل يعبدون الطوطم ، والطوطم هو عبارة عن وثن غالبا ما يكون على شكل حيوان كالكنغر او النعام او الذئب وأحيانا يكون شجرة او جمادا كالشمس او القمر . وكلمة ((طوطم)) مأخوذة من لغة الأبجوا لبعض قبائل الهنود الحمر سكان اميركا الأصليين الذين عثر عليهم عند اكتشاف اميركا وتعني المؤسس أو الحامي[٣] وأول من أدخل اصطلاح الطوطم إلى اللغة الإنجليزية هو الرحالة ج. لونك عام (١٧٩١م) .

يزعم دوركايم أن لكل عشيرة طوطمها الخاص بها وهي مرتبطة به برابطة القرابة والتبعية الاجتماعية وربما تعتقد أنها منحدرة منه ، وانها ترتب على ذلك نظاما اجتماعيا كتحريم قتل واصطياد وأكل أفراد ذلك الحيوان الذي تتخذه العشيرة طوطما ، وكذلك تحريم الزواج بين أفراد العشيرة المنتسبة لطوطم معين ، أي أن من يريد الزواج

---

(١) راجع : قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (دوركايم ، إميل)

٢ - الأشكال الاولية للحياة الدينية ، ص٤

(٣) راجع : موسوعة الدين والطبيعة ، تحرير براون تايلور ، مادة (الطوطمية Totemism)
- قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (الطوطمية)

فعليه أن يتزوج من خارج العشيرة . بهذا يدعي دوركايم أنه قد اكتشف الديانة الطوطمية ، أما تفسيره لهذه الديانة فهو يزعم أن سبب اعتبار الطوطم مقدسا يرجع إلى أنه يمثل رمزا للجماعة نفسها فهو يجسد القيم المحورية في حياة الجماعة او المجتمع وليست مشاعر الإجلال والإكبار التي يحملها افراد الجماعة تجاه الطوطم إلا تعبيرا عن تقديسهم للقيم الاجتماعية الاساسية السائدة بينهم ، فالطوطم يجسد الهوية الاجتماعية للقبيلة ويؤكد وحدتها العضوية ، إن موضوع العبادة هو المجتمع نفسه الذي يسعى إلى أن يؤكد ذاته بذاته ، فلا معبود واقعا سوى المجتمع . بهذا يخلص دوركايم الى تعريف الدين بأنه : ((الدين هو نظام موحد للمعتقدات والممارسات المتعلقة بالأشياء المقدسة أي محظورة وممنوعة ، إنها المعتقدات والممارسات التي توحد في مجتمع أخلاقي واحد يسمى الكنيسة كل أولئك الذين يلتزمون بها))[1] . ونحن نرد هذه الفرضية فنقول:

أولا : يدلس دوركايم الوقائع لكي يمرر أديولوجيته بأصالة المجتمع ، فهو نفسه يشير في الفصل الخاص عن فكرة الروح والآلهة فيقول : ((تعترف الأديان الأسترالية بالفعل بالشخصيات الأسطورية ذات الرتبة العليا: الأرواح ، الأبطال الخارقين وحتى الآلهة الذين يدعون كذلك بشكل صحيح))[2] ولكنه يزعم أنها مبالغة في فهم الوقائع أو حالات استثنائية أو مجرد اساطير وليست دينا .

ثانيا : رأينا سابقا دوركايم وهو يستنكر فرضية الارواح والاحلام ويرى انها لا يجدر أن تصدر من عاقل فيقول ((لا يجدر أن يخطر بالبال أن مجموعات من الافكار مثل الدين، والتي أدت دورا مهما للغاية على مر العصور، وعليها اعتمدت الشعوب في كل الأزمنة لأجل الحصول على القوة المطلوبة لبقائها ، لا يعقل أن تكون مجرد نسيج من الأوهام)) والآن هو من ينقل عن القبائل الاسترالية الاصلية أنهم يعبدون الطوطم ولكنه يقول لهم انكم واهمون فأنتم لا تعبدون الطوطم لذاته وانما بما هو يجسد هويتكم الاجتماعية فأنتم حقيقة تعبدون مجتمعكم ، وبما أن دوركايم يدعي أن الديانة الطوطمية هي أصل كل الأديان فلازم ذلك أن كل الأديان نشأت عن وهم ! فاستنكار دوركايم هذا لفرضية الارواح والاحلام ينطبق على فرضيته ويكشف لا عقلانية الملاحدة وتهافتهم.

---

[1] - الاشكال الاولية للحياة الدينية ، ص٧٤

[2] - المصدر السابق ، ص٢٧٣

ثالثا : يزعم دوركايم أن الدين هو منتوج جمعي ولكن الواقع التأريخي يكذب ذلك ، فأن فردا من المجتمع وهم الانبياء والمرسلون كنبينا محمد صلى الله عليه وآله والنبي عيسى والنبي موسى عليهما الصلاة والسلام هم من جاء بالدين الحق والشرائع .

رابعا : يزعم دوركايم أن الطبيعة الحضارية للمجتمع هي من يصنع الدين المناسب للمجتمع ، ولكن الواقع يكذب ذلك فالدين النصراني هو من غير الطبيعة الحضارية للمجتمع الغربي وخلق حضارة جديدة ، والدين الاسلامي هو من غير الطبيعة الحضارية للعرب والشرق عموما وخلق حضارة جديدة .

خامسا : لوكان الدين هو من انتاج المجتمع فلماذا نجد في المجتمع الواحد أكثر من دين ؟ ففي المجتمع العربي مثلا نجد الدين الاسلامي والنصراني واليهودي وغيرها ، وهكذا جميع المجتمعات . أي أنه حسب فرضية دوركايم فإن كيانا اجتماعيا واحدا ينبغي أن يفرز دينا واحدا يجسد الهوية الجمعية لأفراده ، فلماذا نجد في المجتمع العربي العراقي مثلا الفرد اليهودي والفرد النصراني والفرد المسلم ، هذا تهافت .

سادسا : إن تقديس واحترام ما يكون رمزا وشعارا شيء آخر غير التأليه والعبادة له ، فكل مجتمع لديه رموز وشعارات وشعائر واشياء مقدسة يعاملها بكل اجلال واحترام ولكنه لا يعبدها بالضرورة . وبالفعل فإن أبحاثا قام بها لانج وفريزر وغيرهما أثبتت أن الطوطميّة هي منظومة اجتماعية قبلية وليست دينيّة كما كان زعم دوركايم ، وأن فكرة الدين نشأت بعيدًا تمامًا عن هذه التصورات الساذجة، والتحليلات الواهية! يقول الملحد فريز في مقدمة كتابه : ((لكني بعيد كل البعد عن اعتبار اجلال الشجرة ذا أهمية مميزة في تطور الدين بل هو عامل ثانوي إذا ما قورن بالخوف من البشر الموتى الذي أعتبره القوة الأعظم في نشأة الدين البدائي))[1] يريد فريزر أن يقول إن مجرد احترام او تقديس الموجودات الطبيعية عند البدائيين ليس هو المنشأ الحقيقي للدين بل هو يرى أن منشأ الدين هو الخوف من أرواح الموتى الذي تطور الى عبادة ارواح الاسلاف ، ونحن قد رددنا فيما تقدم فرضية الأرواح وفرضية الخوف بكافة صورهما .

فالطوطم شعار قومي ورمز يُعرِّف القبائل بأنسابها ويبعث على التعاون والالتزام لا أكثر كما نقل فرويد الذي سنعرض فرضيته لاحقا عن كين قوله : ((نتجت الطواطم

[1] - الغصن الذهبي ، ص١٢

عن شارات الرايات التي أراد بها الأفراد والعائلات والقبائل تمييز بعضهم عن بعض))[1] فتلك القبائل كان لهم إله معبود آخر كما اشار دوركايم الى ذلك وحاول طمس الحقيقة .

سابعا : اكتشف الكثير من علماء الغرب خطأ دوركايم في موضوع بحثه ، فهو قد ركز دراسته على قبائل اوسط استراليا مدعيا أنها تمثل اقدم طور معروف للحياة البشرية ، لكن الابحاث الأحدث اثبتت أن قبائل جنوب شرق استراليا هم اقدم من قبائل الوسط ، بل اثبتت الابحاث النهائية أن قبائل الاقزام في وسط افريقيا يمثلون اقدم طور في الحياة البشرية وأنهم يفوقون في البدائية قبائل جنوب شرق استراليا ، ولم يجد فلهلم شمدت وغيره في عقائد تلك الجماعات أي أثر لعبادة الطبيعة أو الأرواح ، أما أميز عقائدهم فهي عبادة سيد العالم الموجود الأسمى[2] .

ثامنا : منذ أن تم اكتشاف السكان الاصليين في اميركا واستراليا وملاحدة الغرب ينهالون عليهم تنظيرا بعد أن اثبتوا لهم لقب (الأقوام البدائية) فجعلوهم مادة لدراسة السلالة الاولى من البشر ، ولكن أول الكلام من قال أن هؤلاء يمثلون السلالة الاولى من البشر ؟ إن هؤلاء بشر معاصرون لنا وأعمارهم كأعمارنا ولا نعرف بالضبط الظروف التي أوجبت تأخرهم العلمي والاقتصادي والتكنولوجي ، كما لا نعلم على وجه اليقين شيئا عن ماضي اسلافهم الممتد لآلاف السنين ، فتوصيفهم بالبدائية واعتبارهم يمثلون السلالة الاولى للبشر - ولو على نحو التقريب - ثم تركيب الفرضيات المؤدلجة عليهم وتقديمها للناس كعلوم سيسولوجية وانثربولوجية وثيولوجية ينطوي على خيانة علمية كبيرة وجريمة اخلاقية خطيرة .

تاسعا : السيد دوركايم هو من زعماء الالحاد الفرنسي في القرن التاسع عشر عصر الثورة الصناعية وصعود موجة الالحاد الاوربي ، وهو من جهة يرى أعلى مستويات الانحطاط التي وصل اليها المجتمع الفرنسي ويعلم أن لا العلم ولا القانون ولا التطور الاقتصادي ولا التطور التكنولوجي ممكن أن يقوم بوظيفة الدين في التربية الروحية للمجتمع وتهذيب أخلاق الناس وضبط سلوكهم ، فتراه يعترف بضرورية الدين لحفظ كيان المجتمع في خاتمة كتابه فيقول : ((هناك شيء خالد في الدين مقدّر له أن ينجو

---

[1] - الطوطم والتابو ، سيجموند فرويد ، ص١٣٤

([2]) راجع : نشأة الدين ، علي سامي النشار ، ص١٩٦

من جميع الرموز الخاصة التي طغى فيها الفكر الديني على نفسه. لا يمكن أن يكون هناك مجتمع لا يشعر بالحاجة إلى التمسك وإعادة التأكيد على فترات منتظمة على المشاعر الجماعية والأفكار الجماعية التي تجسد وحدته وشخصيته))[1] ، ولكنه من جهة أخرى مختصم مع الاديان الموجودة ويعتبرها اصبحت قديمة أو ميتة .

هذه الهواجس والمشاعر المضطربة هي ما حدت به الى ابتداع فرضية مجتمعية الدين ، ولذلك هو في خاتمة كتابه يطلب من مجتمعه المعاصر أن يبتدع دينه الخاص به بعد أن سخر من محاولة اوغست كونت الفردية في ابتداع دين جديد على غرار الاديان التي وصفها بالقديمة ، فيقول : ((الآلهة القديمة أصبحت قديمة أو ميتة بالفعل ، والبعض الآخر لم يولد بعد ، هذا ما جعل محاولة كونت عبثا تحفها الهدايا التذكارية التاريخية القديمة. إنها الحياة نفسها ، وليس الماضي الميت الذي يمكن أن ينتج عبادة حية. لكن هذه الحالة من الاضطراب والإثارة المشوشة لا يمكن أن تستمر إلى الأبد. سيأتي يوم تنجح فيه مجتمعاتنا مرة أخرى في معرفة تلك الساعات من الإبداع الخلاق ، والتي تنشأ خلالها أفكار جديدة وتوجد صيغ جديدة تعمل لفترة من الوقت كدليل للإنسانية))[2] .

ولكن دوركايم قد مات ، ومات مجتمعه المعاصر له ، وماتت فرضيته بعد أن استنكرها المجتمع العام والمجتمع الأكاديمي ، وبقي الدين الذي اعترف أنه يشتمل على سمة الخلود .

---

[1] - الأشكال الاولية للحياة الدينية ، ص٤٢٨

[2] - المصدر السابق ، ص٤٢٨

٧- فرضية الصراع النفسي

صاحب هذه الفرضية هو سيجموند فرويد (توفي ١٩٣٩م) الملحد من اصل يهودي نمساوي والمعدود عند الغرب مؤسس علم النفس التحليلي[١] . طرح فرويد فرضيته هذه في كتابه (الطوطم والتابو) ثم لخصها في كتابه (حياتي والتحليل النفسي) فقال : ((قبل أن أفهم الصلات العميقة وصفت عصاب الوسوسة بأنه دين خاص مشوه ، والدين بأنه عصاب وسواسي عام ... فبينت في اربع رسائل جمعت في كتاب بعنوان (الطوطم والتابو) أن الفزع من الاتصال بالمحارم ابرز لدى الاجناس البدائية منه لدى المتمدنة ... كانت نقطة بدايتي هي ذلك التقابل البارز بين الأمرين اللذين حرمتهما الطوطمية (أعني تحريم قتل الطوطم وتحريم الاتصال الجنسي بأية امرأة من عشيرة الطوطم نفسها) وعنصري عقدة اوديب (أعني قتل الأب واتخاذ الأم زوجا) فأغراني ذلك أن اساوي الطوطم الحيوان بالأب ... خطر لي من كل هذه العناصر الفرض التالي أو بالأحرى الرؤية التالية : حيث أن أب القبيلة كان طاغية لا حد لسلطانه فقد استولى لنفسه على جميع النساء وحيث أن أولاده كانوا غرماء خطرا عليه فقد قتلهم أو نفاهم . بيد أن الأولاد تجمعوا ذات يوم وائتمروا على أن يقهروا أباهم ويغتالوه ثم يفترسوه ، أباهم الذي كان لهم عدوا ومثلا أعلى في نفس الوقت . وبعد أن تم لهم ما أرادوا دب الخلاف بينهم فعجزوا عن الاضطلاع بما ورثوا ، ولكنهم استطاعوا تحت تأثير الإخفاق والندم أن يصلحوا ذات بينهم وينتظموا في قبيلة من الأخوة مستعينين بقوانين الطوطمية التي تهدف الى تجنب تكرار مثل هذه الفعلة ، وأجمعوا أمرهم على أن يتخلوا عن امتلاك النساء اللائي من أجلهن اغتالوا أباهم . وكان عليهم بعدئذ أن يلتمسوا نساء غريبات ، وذلك هو الأصل في الزواج الخارجي الذي يتصل اتصالا وثيقا بالطوطمية . والآن سواء تصورنا أن احتمالا هذا شأنه كان واقعة تاريخية أم لم يكن فهو قد أدخل الدين ضمن عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة))[٢] .

وخلاصة تقرير هذه الفرضية أن فرويد لما اطلع على الابحاث الخاصة بالطقوس الطوطمية وجدها تشتمل على أمرين اساسين هما : ١- تحريم قتل افراد الحيوان

---

(١) راجع : قاموس اكسفورد الطبي ، مادة (فرويد ، سيجموند)
- قاموس اكسفورد للعلوم الاجتماعية ، مادة (فرويد ، سيجموند)

٢ - حياتي والتحليل النفسي ، سيجموند فرويد ، ص١٠١-١٠٣

الطوطم المتخذ رمزا للعشيرة والذي يدعي ابناء العشيرة انحدارهم منه ٢- تحريم الزواج بين أفراد العشيرة . وجد فرويد هذين الأمرين يتوافقان مع نظريته في علم النفس القائمة على اساس ارجاع الامراض النفسية الى صراع النفس مع رغبات جنسية مكبوتة فيما اسماه (اللاشعور) ، مما دعاه الى افتراض فرض خيالي وهو أن منشأ الدين الطوطمي الذي هو عنده اصل الأديان ربما كان سببه أن السلالة الأولى من البشر كان يحكمها الأب وكان يستحوذ على النساء فقام الأبناء بقتله وأكله واستحوذوا على امهاتهم ، ثم شعروا بالندم على هذه الجريمة فجعلوا الحيوان الطوطم رمزا لأبيهم يقدسونه ويحرمون قتله ، كما حرموا زواج الأقارب المنتسبين لهذا الأب . على هذا الاساس اعتبر فرويد أن الدين عبارة عن مرض نفسي وأن الإلحاد يعتبر حالة نفسية صحية ، وأن كل الأديان تأسست على أساس التكفير عن تلك الجريمة الأولى . ونحن نرد على هذه الفرضية المرضية التي انفرد بها فرويد ولم يتابعه عليها أحد من كبار الملاحدة فنقول :

أولا : إن أصل نظرية فرويد في علم النفس التحليلي تقوم على اساس إرجاع كل نشاط بشري بل كل الحضارة الانسانية الى تأثير الغريزة الجنسية والصراعات المكبوتة في اللاشعور فيقول : ((في ختام هذه الدراسة المعدة باختصار شديد أود أن اذكر حصيلتها ، وهي أنه في عقدة اوديب تلتقي بدايات الدين والاخلاق والمجتمع والفن))[١] . هذه النظرية لا تصدر من انسان عاقل ذي شخصية سوية فهي تؤصل للرذيلة باسم العلم ويكفي أن نقول أنه قد رفضها واستنكرها كل كبار علماء النفس عند الغرب من جميع المدارس النفسية وبعضهم من الملاحدة[٢] . ابرز من رفضها كارل يونغ (توفي ١٩٦١م) وهو زميل فرويد والمعدود عندهم مؤسس علم النفس التحليلي ورئيس رابطة علم النفس التحليلي الدولية ، كما رفضها ألفرد آدلر (توفي ١٩٣٧م) وهو زميل فرويد وتلميذه الشهير والمعدود عندهم مؤسس علم النفس الفردي .

ثانيا : إن كان كل السلوك البشري عند فرويد يرجع الى تأثير الغريزة الجنسية والى صراع النفس مع الرغبات الجنسية المكبوتة في الحيز الذي اخترعه واسماه (اللاشعور) واعتبره مستودعا للرغبات التي تم قمعها وإلقاؤها بعيدا عن الوعي ، فلماذا لا يكون

---

[١] - الطوطم والتابو ، ص١٨٣

([٢]) راجع : مدارس علم النفس ، حسين الغامدي

موقفه من الدين وسلوكه الالحادي راجعا أيضا الى ذلك الصراع في اللاشعور وهو لا يشعر ؟ إن في نشأة فرويد ما يدعم ذلك ، فهو ابن لتاجر يهودي تزوج ثلاث نساء ، كما كان فرويد منبوذا في الوسط الدراسي النصراني بسبب عرقه وديانته اليهودية فلم يتمكن برغم ثرائه وجماله وذكائه من ايجاد من يحبه وقد اشار بنفسه الى ذلك في سيرة حياته فقال : ((وعند التحاقي بالجامعة عام ١٨٧٣ عانيت من خيبة الأمل الشيء الكثير ، فقد واجهت التزاما غريبا كان علي أن اشعر أنني دون غيري من الناس ، وأنني غريب عنهم لأنني كنت يهوديا))[١] ، إننا لا نعترف بخزعبلاته ولكنها حجة عليه .

ثالثا : إن فرضية فرويد في أصل الدين مبنية على معطيات الديانة الطوطمية ونحن قد اثبتنا بطلان تلك المعطيات عند مناقشة فرضية الطوطمية والمجتمع وذكرنا ما نقله هو عن بعضهم من أن الطواطم ليست إلا أعلاما وشعارا للتمييز بين القبائل .

رابعا : يدعي فرويد أن كل الأديان تأسست للتكفير عن تلك الجريمة الاولى التي افترضها ((جريمة أكل الأب والاستحواذ على الأم)) وأن كل الاديان لأجل ذلك تكون مرضا نفسيا ، ونحن نقول إذا كان كافة الأديان والمتدينين لا يعرفون تلك القصة أصلا ولم يسمعوا بها على فرض حصولها فكيف أقاموا دينهم وتدينوا على اساسها !! بل أن تلك القصة هو نفسه يقر أنه اختلقها كاحتمال لتفسير النظام الطوطمي فحتى سكان استراليا الاصليين لا يعرفونها ، ثم لا نعلم كيف يكون الدين مرضا نفسيا مع أن كافة الأديان حتى الوضعية تدعو الى تهذيب النفس ومكارم الأخلاق بينما الالحاد الذي يدعو الى تدمير النفس باعتبارها نفاية بايوكيميائية ويدعو الى الفجور يكون صحة نفسية !! هذا الكلام لا واقع له بل الواقع يكذبه ، ولما كان فرويد يعلم ذلك فقد اخترع اسطورة صاغها بنفسه وفسر على اساسها فرضيته في اصل الدين ليبرر الحاده وأمراضه النفسية .

خامسا : إن فرويد يعترف بجهله بأصول الطوطمية فيقول : ((ونحن لا نستطيع أن نقول بثقة كيف كان جانبا الطوطمية مرتبطين ببعضهما في الاصل ، بسبب جهلنا بأصول الطوطمية))[٢] ويرجع سبب جهله الى اضطراب آراء الباحثين فيقول : ((بالتأكيد سيدهش قرائي عندما يعلمون كم هي مختلفة وجهات النظر التي حاولت الاجابة

---

[١] - حياتي والتحليل النفسي ، ص٢١
[٢] - الطوطم والتابو ، ص١٢٧

على هذه المسائل ، وكم تتباعد آراء الباحثين المختصين حولها . بهذا اصبح الى حد ما مشكوكا بكل ما قيل عموما حول الطوطمية والتزاوج الخارجي))[1] وهو يعترف أن فرضيته ليست تفسيرا كاملا للدين فيقول : ((ليس للمرء أن يخشى على التحليل النفسي ... من أن ينجر الى اشتقاق شيء معقد مثل الدين من أصل وحيد ، وإذا أراد مضطرا اضطرارا يمليه عليه الواجب أن يكون احاديا وتبنى منبعا واحدا فحسب من منابع هذه المؤسسة الاجتماعية ، فأنه لا يزعم أن هذا المنبع حصري))[2] وهو يقر في نهاية تلخيص فرضيته أن قصته لتفسير الدين هي مجرد اسطورة افترضها فيقول: ((والآن سواء تصورنا أن احتمالا هذا شأنه كان واقعة تأريخية أم لم يكن فهو قد أدخل الدين ضمن عقدة الأب وأقامه على أساس الازدواج العاطفي الذي يسيطر على هذه العقدة))[3]

تكفينا هذه الاعترافات منه برهانا على بطلان الفرضية وتهافتها .

---

[1] - المصدر السابق ، ص١٣١

[2] - المصدر السابق ، ص١٢٣

[3] - حياتي والتحليل النفسي ، ص١٠٣

القيمة المعرفية لفرضيات الملاحدة

أولا : هذه هي معظم فرضيات الملاحدة في أصل الدين ، وكما رأيتم فهي على كثرتها مجرد فرضيات واهية في نفسها مفتقرة الى البرهان ، وبرغم أن واضعي هذه الفرضيات هم زعماء الملاحدة فهي تهدم بعضها بعضا ، فتعدد الفرضيات وبطلانها في نفسها ونقض كل واحدة منها لغيرها يكشف تهافت الملاحدة واضطرابهم وعدم قيام الموقف الالحادي على اسس علمية صحيحة .

ثانيا : إن جميع فرضيات الملاحدة قائمة على فرضية (التطور الاجتماعي) التي قال بها الملحد البريطاني هربرت سبنسر[١] (توفي ١٩٠٣م) والتي ظهرت متزامنة مع فرضية التطور البايلوجي لدارون في القرن التاسع عشر . تنظر فرضية التطور الاجتماعي الى الحضارة ككيان واحد قد تطور من الحالة البسيطة الى الحالة المعقدة كما تطورت الاجناس من كائن بسيط وحيد الخلية الى الاجناس العالية حسب فرضية دارون . على أساس هذه الفرضية التطورية قامت جميع فرضيات الملاحدة في تفسير الدين ، لكن هذه الفرضية عارضها الكثير من علماء الغرب وبعضهم من الملاحدة ، فقد عارضها الملحد الالماني شبنجلر (توفي ١٩٣٦م) الذي اطلق فرضية (الانهيار الحضاري) التي تذهب الى حتمية موت الحضارة و ولادة حضارة أخرى على انقاضها[٢] . كذلك فأن الشيوعية الماركسية الالحادية رغم قيام فلسفتها التأريخية الاجتماعية على فرضية التطور فإنها باعتبارها لمكونات الحضارة ((الدين والاخلاق والثقافة والفكر)) هي عبارة عن بناء فوقي متولد عن البنية التحتية الاقتصادية فهي ذهبت الى فرضية حتمية سقوط الحضارة القائمة على الرأسمالية البرجوازية وزوالها . هذا التهافت يكشف أن جميع فرضيات الملاحدة قائمة على أساس غير ثابت وعلى شفا جرف هار .

ثالثا : إن النظر الى الدين كظاهرة اجتماعية وبالتالي دراستها و وضع الفرضيات في اسبابها هو منظار خاطئ اصلا ابتدعه الملاحدة للتنظير لإلحادهم ، فأول الكلام من قال أن الدين هو ظاهرة اجتماعية وصناعة بشرية ؟ لماذا لا يكون مقتضى الفطرة ورسالة

---

(١) راجع : الموسوعة الفلسفية المختصرة ، مادة ((سبنسر ، هربرت))
(٢) راجع : معجم الفلاسفة ، مادة ((شبنجلر))

إلهية ؟ إن زعماء الملاحدة قد ألحدوا أولا لأسباب غير علمية ثم بعد ذلك زعموا أن الدين هو صناعة بشرية وراحوا يبحثون عن اسبابه ، تماما مثل زعماء مشركي مكة وزعماء اليهود والنصارى فهم قد كفروا أولا بما جاء به محمد صلى الله عليه و آله وسلم تعصبا واستكبارا وبغيا وحسدا وطمعا وهم يعلمون جيدا أنه الحق من ربهم ثم راحوا يُنَظِّرُون لكفرهم فقالوا : إنه اساطير الاولين بل شعر شاعر بل اضغاث احلام بل سحر ساحر بل هذيان مجنون بل افتراه بل هو كاذب ((انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا (٩)))[١] ، وحاشاك يا حبيب الله بل أنت : ((يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦)))[٢] .

[١] - سورة الفرقان
[٢] - سورة الأحزاب

أصل الفطرة الإلـهية

الفَطْر: في الاصل هو الشّق طولا والجمع فُطور ، وقد يكون الفَطْر على وجه الصلاح مثل : فطرت الارض اي شققتها للزراعة ، وقد يكون على وجه الفساد والخلل مثل : انفطر الجدار فهو مفطور أي انشق وتصدع ، ومنه قوله تعالى : ((الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ (٣)))[١] اي لن ترى خللا وفسادا في تصميم النظام الكوني ، ويأتي ((الفَطْر)) بمعنى اصل الايجاد والابتداع فيقال : فطر فلان البئر أي اوجده وابتدعه ، ومنه قوله تعالى : ((الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١)))[٢] اي خالق ومبدع وموجد السماوات والارض ، والفِطْرة : اصل الايجاد والخِلقة ، وفَطْر الله للخلق هو إيجاده وإبداعه[٣] .

الفطرة الالهية للنوع الانساني : هي خلق الله للإنسان وتصميمه لهم في احسن تقويم يناسب تحقيق الغاية من خلقه ويعطيه ميزة الافضلية في مراتب الوجود ويرشحه لخلافة الله في الارض ، ولها جانبان : مادي وروحي ، اما الجانب المادي للفطرة فقد فطر الله التكوين الجسمي للإنسان بتصميم يميزه عن سائر المخلوقات ، يقتدر معه على ما لا يقتدر عليه غيره من الفعل والادراك ، واودعه من الاسرار بحيث يكون مؤهلا لإنتاج انماط جديدة من الافعال في سلسلة تكاملية ، قال تعالى : ((قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ (٢٣)))[٤] ، اما الجانب الروحي للفطرة فقد فطر الله التكوين النفسي للإنسان على فضائل الاخلاق ومعرفة الحقائق العالية وابداع الافكار والارتقاء في سلم القيم النبيلة والمعارف .

الفطرة البشرية بكلا جانبيها تشهد بوجود الله الكامل المطلق لأن الإنسان بكلا جانبيه الروحي والمادي هو محض الحاجة والافتقار النازع نحو الكمال الجامع لكل

---

[١] - سورة الملك
[٢] - سورة فاطر
[٣]) راجع : لسان العرب ، ابن منظور ، مادة (فطر) ، ج٥ ص٥٥
- مفردات الفاظ القرآن ، الراغب الاصفهاني ، مادة (فطر) ، ج٢ ص١٩٨
[٤] - سورة الملك

صفات الجمال والجلال ، وهذا الأمر يدركه كل إنسان يبصر ذاته وما حوله وكفى بالإنسان على نفسه بصيرة . هذا برهان ونور للإنسان من ذات الإنسان على وجود الله وربوبيته و وحدانيته وكماله المطلق تجده في حالته الصافية عند الأطفال حيث لم تتكدر فطرتهم بعد بشوائب السيئات ، فأصل الدين هو هداية الفطرة الى الله كما قال الله تعالى : ((فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٠)))[١] . إنسانية الإنسان تقتضي دين التوحيد الحق لأنه فطرة الله التي فطر الناس عليها ، فلا ينحرف عن دين التوحيد الحق إلا من تلوثت فطرته ، ولا ينكر وجود الله ويجحد رسالاته الا من طمس فطرته الانسانية و انحدر عن رتبته الوجودية التي جعله الله فيها كما قال تعالى : ((وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٧٩)))[٢] .

ومن مضحكات تهافت الملاحدة في هذا المجال انهم يمجدون الانسانية ويزعمون انه لا مقدس عندهم سوى الانسان ويغضبون من وصف القرآن لهم بالبهائم ، في حين انهم بحسب مبادئ الالحاد ليس الانسان عندهم سوى نفاية كونية وخلطة بايوكميائية متطورة عن سلف حيواني !

الانسان ربما يغفل عن ذاته أو يدنس أو تتدنس فطرته فينسى ربه ويضل ، لذلك كان من لطف الله تعالى بعباده وحبه لهم أن يصطفي منهم خيرهم ليذكرهم بعهد الفطرة ويهديهم سبيل الرشاد ، وأولئك المصطفون الأخيار هم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، قال تعالى : ((هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢) وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُوا بِهِمْ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٣) ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٤)))[٣] وقال تعالى : ((فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ (٢١) لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيْطِرٍ (٢٢)))[٤] ولقد أحسن أمير المؤمنين وخليفة الرسول الأمين بالحق وترجمان القرآن الأمام علي عليه السلام في إبراز هذا المعاني القرآنية السامية ، ففي أول خطبة من نهج البلاغة بعد أن حمد الله تعالى وذكر ابتداء خلق السماوات والارض وخلق النبي آدم عليه السلام قال : ((

---

[١] - سورة الروم
[٢] - سورة الأعراف
[٣] - سورة الجمعة
[٤] - سورة الغاشية

واصطفى سبحانه من ولده " النبي آدم " أنبياء أخذ على الوحي ميثاقهم ، وعلى تبليغ الرسالة أمانتهم لما بدل أكثر خلقه عهد الله إليهم فجهلوا حقه ، واتخذوا الانداد معه . و اجتالتهم الشياطين عن معرفته ، واقتطعتهم عن عبادته . فبعث فيهم رسله وواتر إليهم أنبياءه ليستأدوهم ميثاق فطرته . ويذكروهم منسي نعمته . ويحتجوا عليهم بالتبليغ . ويثيروا لهم دفائن العقول . ويروهم آيات المقدرة ...))[1] .

فأصل الدين هو اقتضاء الفطرة البشرية ، هذه هي العقيدة القرآنية التي يتفق عليها جميع المؤمنين من كافة الأديان وإن اختلفوا في المسميات وتفرقوا في الصفات وضل كثير منهم في التفريعات ، بل يقرها أيضا بعض الملاحدة . هذه العقيدة يثبتها وجدان الإنسان وتراها ساطعة عند الأطفال ، كما يثبتها الكثير من علماء الاجتماع وعلماء الانثربولوجيا وعلماء الميثولوجيا وعلماء النفس وعلماء تأريخ الأديان - بعضهم من الملاحدة - عند الشعوب التي وصفوها بالبدائية واعتبروها تمثل طفولة الجنس البشري.

أول من نبه الى (التوحيد البدائي) هو الباحث الاسكتلندي أندرو لانج (توفي ١٩١٢م) اعتمادا على تقارير أنثروبولوجية اثبتت أن العديد من القبائل البدائية تؤمن بالله العظيم الخالق وغالبًا ما يكون مشرعا للنظام الاخلاقي عندهم ، فكان هذا الاكتشاف يمثل صدمة مناقضة لكل الفرضيات الالحادية في أصل الدين في عصره وللمخطط التطوري في دراسة الدين الذي يبدأ بالإلحاد . الكاثوليكي والاثنيولوجي فيلهلم شميت (توفي١٩٥٤ م) اعتمد الخبرة الأنثروبولوجية والمنهج التأريخي في سلسلة كبيرة من التحقيقات الميدانية أجراها على مختلف القبائل البدائية في شتى العالم وجمع تلك التحقيقات مع الشواهد والنتائج في كتابه (أصل فكرة الله) الذي ظهر في ١٢ مجلداً من عام ١٩١٢ ، واكدت تلك التحقيقات على ايمان القبائل البدائية بوجود إله واحد هو الإله السامي وإله السماء . رفائيل بتتازوني عالم الانثربولوجيا الايطالي (توفي١٩٥٩ م) ، أكد وجود الإله السامي عند القبائل البدائية وشدد فقط على أن إله السماء له الاولوية عندهم ولكنه ليس واحدا [٢] .

اعتبر الباحث الانثربولوجي (فوي) أن قبائل جنوب شرق استراليا تمثل أقدم طور للحياة البشرية ، وأكد أنه وجد عندهم عقيدة الإله الاسمى يعرفونه كأب وأنه خالق

---

[1] - نهج البلاغة ، الخطبة الاولى ، ج١

([2]) راجع : الموسوعة البريطانية ، مادة (دراسة الدين)

الانسان والظواهر الطبيعية الكبرى . وهاجم الباحث انكرمان الفرضيات التطورية نافيا نفيا قاطعا فكرة كون عقيدة الإله الأسمى هي نهاية تطور الاديان مؤكدا وجود هذه العقيدة عند الشعوب البدائية . وذهب الباحث الرائد في علم الاساطير الالماني شلنج في كتابه (فلسفة الميثولوجيا) الى أن عقيدة التوحيد كانت تسود الإنسانية الاولى ولكنها لم تتحقق بشكل كامل فانحرفت نحو التعدد والشرك وهامت في بحار من الاساطير عن الآلهة وتعددهم . وأكد الباحث شرودر الاستاذ بجامعة فينا على وجود عقيدة الإله الأسمى عند الهنود الآريين في بحث هام بعنوان (العقيدة الآرية عن الخالق الأسمى) ألقاه في المؤتمر الدولي الثاني لتأريخ الاديان العام سنة ١٩٠٤م . ونشر الدكتور كروبر ابحاثا متعددة عن هنود كاليفورنيا ، أثبت فيها أن تلك القبائل هي أقدم القبائل في أمريكا الشمالية ، وجزم أن هؤلاء الهنود عرفوا عقيدة الخلق بواسطة الإله السامي . ودافع كذلك عالم النفس الالماني الدكتور اوسترج عن فكرة وجود عقيدة الإله الاسمى عند البدائيين وكتب كتابا في سايكولوجية الدين وقال أن الإله الاسمى يتميز عند المتوحشين بسموه الاخلاقي الى جنب قدرته على الخلق . بينما هاجم عالم الاجناس الامريكي سوانتون الفرضيات التطورية في اصل الدين وخلص الى أنه لا فارق بين توحيد البدائيين وتوحيد المعاصرين ، فقد آمن البدائيون تماما بوجود قوة عليا سامية . كما هاجم فوكارت الطوطمية هجوما عنيفا ووصل في بحوثه الى أن عقيدة إله السماء الاعلى تمتد الى اقدم العصور البشرية [١] .

هذه كانت مجرد نبذة مختصرة لآراء بعض علماء الغرب في تخصصات علوم الاجتماع والنفس والانسان والاجناس والاسطورة وعلم الاديان المقارن وهي العلوم التي استغلها زعماء الالحاد لتبرير الحادهم ، هذه العلوم نفسها تثبت أصالة الدين ورسوخه في تخوم الوجود البشري وتثبت كون الايمان بالله الواحد الاحد هو مقتضى الفطرة البشرية ، ولكن كما قلنا فإن الفطرة قد تتلوث وأن الانسان ربما غفل فضل مما أدى الى انحراف البشر عن الدين الأصيل ، قال الامام الصادق عليه السلام : ((ما من مولود يولد إلا على الفطرة فأبواه اللذان يهودانه وينصرانه ويمجسانه))[٢] في إشارة الى دور التربية والبيئة الاجتماعية الفاسدة في انحراف الانسان ، مما اقتضى بعث الله الانبياء والمرسلين لهداية البشر واعادتهم الى الصراط المستقيم ((كَانَ النَّاسُ أُمَّةً

---

(١) راجع : نشأة الدين ، ص١٧٨-٢٣٨

٢ - من لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق ، رقم الحديث ١٦٦٨ ، ج٢ ص٤٩

وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ))[1] .

الخلاصة

١- الفطرة تعني اصل الخلقة ، وفطرة الايمان تعني اقتضاء خلقة الانسان للإيمان بالله تعالى ، فكما أن المصباح مصمم تصميما يقتضي أن يضيء فيهدي في ظلمات الاجسام فكذلك خلقة الانسان مصممة بحيث تهدي في ظلمات الارواح ، وكما أن المصباح المتسخ لا يكفي للهداية مما يستدعي وجود المرشد فكذلك فطرة الانسان الملوثة لا تكفي للهداية مما يستدعي وجود الانبياء والمرسلين .

٢- عقيدة اقتضاء الفطرة البشرية للإيمان هي عقيدة القرآن الكريم ويتفق عليها جميع المؤمنين من كافة الأديان ، بينما تفرق الملاحدة فبعضهم وافق المؤمنين باقتضاء الفطرة للإيمان وضل في التفاصيل مثل كارن ارمسترونج ، وبعضهم خالف المؤمنين ووضع الفرضيات ليبرر لإلحاده . هذا الأمر يعكس تشرذم الملاحدة وحيرتهم .

٣- إن عقيدة اقتضاء الفطرة البشرية للإيمان يثبتها وعي الانسان لذاته ، وتصرح بها فطرة الأطفال ، وتؤكدها العلوم التي سخرها الملاحدة لخدمة إلحادهم ، بينما تجد فرضيات الملاحدة مجرد تخيلات متهافتة ينقض بعضها بعضا . فالدين والتدين ليس وليد الاحلام أو ارواح الموتى أو الجهل أو الفقر والثروة أو تقديس الطبيعة أو الأسطورة أو عبادة المجتمع أو الصراع الجنسي ، إنما الدين والتدين هو اقتضاء الفطرة البشرية .

لقد أحسن الشيخ الشهيد مرتضى المطهري بعد عرض ومناقشة فرضيات الملاحدة غير العقلانية حيث قال : ((ما هذا المرض الذي يحدو بالإنسان الى أمثال ما سبق من التحليل والتفسير ؟ إن أمرهم يشبه أن نرى رجلا في قاعة مفتحة الأبواب فنقول : إنه نزل من السقف ! ما الذي يدعونا لهذا القول بوجود أبواب مفتوحة ؟ لو كانت مغلقة لتساءلنا : من أين أتى ؟ ولكن في حالة الأبواب مفتوحة فإنه يكون مرضا لو قلنا : إنه

[1] - سورة البقرة

ثقب السقف وهبط منه !))[1] فالإلحاد حالة مرضية فعلا والخدعة أن هذه السموم تقدم على انها علوم بعد تغليفها بالمصطلحات والالقاب الاكاديمية فيطلع عليها بعض البسطاء من هواة التقليد الأعمى وممن يعانون مشاكل في حياتهم ، فتؤدي الى تلويث الفطرة السليمة والضلال ، ولكن الله تعالى يهدي برحمته من شاء أن يهتدي الى الحق من عباده ، فالحمد لله على ما هدانا من الحق بإذنه وصلى الله وسلم على الهادي الأمجد المصطفى محمد وعلى آل بيته هداة الورى من بعده وعلى هادي الأمم الأمام المنتظر عجل الله فرجه وجعلنا من أنصاره .

[1] - الفطرة ، الشيخ مرتضى المطهري ، ص١٥٢

المصادر

١- القرآن الكريم

٢- أصول العائلة والملكية الخاصة والدولة ، فردريك إنجلز

٣- أصول الفلسفة الماركسية ، جورج بولتيزر

٤- الأشكال الأولية للحياة الدينية ، إميل دوركايم

٥- الطوطم والتابو ، سيجموند فرويد

٦- الغصن الذهبي ، جيمس فريزر

٧- الفطرة ، الشيخ مرتضى المطهري

٨- الله والأنسان ، كارن آرمسترونج

٩- الله يتجلى في عصر العلم ، نخبة من العلماء الامريكيين

١٠- الموسوعة البريطانية

١١- الموسوعة الفلسفية المختصرة ، جوناثان رى

١٢- بيان الحزب الشيوعي ، كارل ماركس و فردريك إنجلز

١٣- تأريخ الأسطورة ، كارن آرمسترونج

١٤- حياتي والتحليل النفسي ، سيجموند فرويد

١٥- دروس في الفلسفة الوضعية ، أوغست كونت

١٦- علم الأديان ، خزعل الماجدي

١٧- قاموس اكسفورد الطبي

١٨- قاموس أكسفورد للعلوم الاجتماعية

١٩- لسان العرب ، ابن منظور

٢٠- لماذا لست مسيحيا ، برتراند رسل

٢١- مدارس علم النفس ، حسين الغامدي

٢٢- معجم الفاظ القرآن ، الراغب الأصفهاني

٢٣- معجم الفلاسفة ، جورج طرابيشي

٢٤- من لا يحضره الفقيه ، الشيخ الصدوق

٢٥- موسوعة الدين والطبيعة ، براون تايلور

٢٦- نشأة الدين ، علي سامي النشار

٢٧- نقد فلسفة الحق عند هيجل ، كارل ماركس

٢٨- نهج البلاغة ، جمع الشريف الرضي ، شرح الشيخ محمد عبده

٢٩- وسائل الشيعة ، الحر العاملي

المحتويات

المقدمة ٢

فرضيات الملاحدة حول أصل الدين ٣

١- فرضية الأرواح والأحلام ٣
٢- فرضية الجهل ٦
٣- فرضية الفقر ١١
٤- فرضية الخوف ١٧
٥- فرضية الأسطورة وعاطفة التقديس ٢١
٦- فرضية الطوطمية والمجتمع ٢٧
٧- فرضية الصراع النفسي ٣٢
القيمة المعرفية لفرضيات الملاحدة ٣٦

أصل الفطرة الإلهية ٣٨

الخلاصة ٤٢

المصادر ٤٤